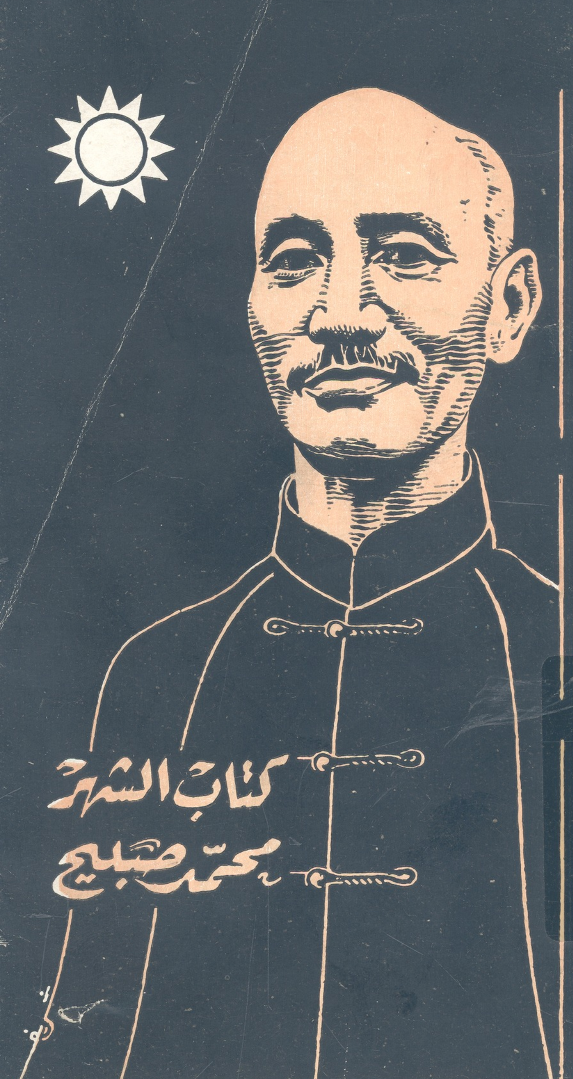
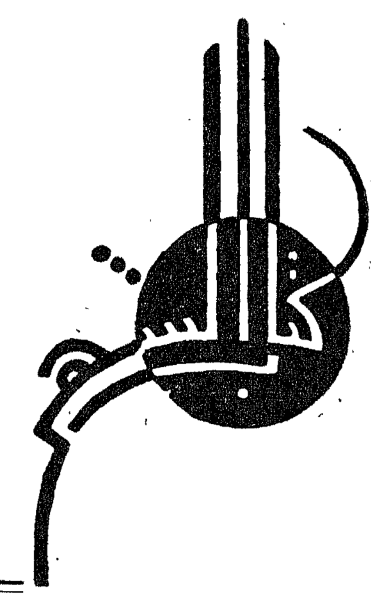
شيانج كاي شيك

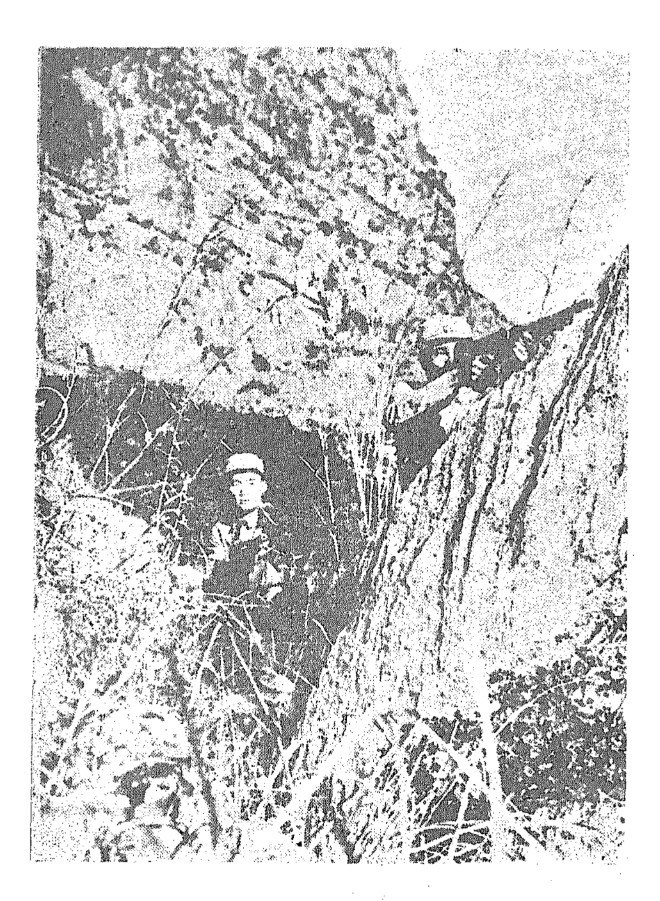




شيانج كاى - شيك

محمد صبيح

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه



في حراسة الصبي



الصين

كلمة غريبة — نوعا ما — على أذن القارىء العربى ، لأنها تمثل فى الذهن صورة لبلاد بعيدة ، فسيحة ، لونها أصفر ، وأمرها كثير الغموض .

أليست قطعة من الشرق الأقصى ، أو هى معظم الشرق الأقصى ؟ ولم يقل واصف هذا الجزء من العالم ، الشرق القاصى ، ولكنه عمد إلى المبالغة والتهويل . فى حين أن واصفه فى اللغات الأوربية مثلا لم يزد على أن قال الشرق البعيد Far East ، وهو

يتحدث عن الصين وجاراتها . مع أن المسافة بين انجلترا مثلا ، وبين شرق آسيا ، أكثر بكثير من المسافة بين مصر وهذا الشرق . ولكن معظم الأور بيين شعوب رحالة ، جابت الآفاق ، ودفعت سفائنها إلى البحار المجهولة ، فهزمت المسافات ، وطالت قبضتها البعيد ، واستدنت النائى . ولذا لم يظهر فى لغتها هذا الغلو البادى فى لغتنا .

وسيأتى وقت قريب ، بل لعل هذا الوقت قد أتى فعلا ، الذى يمحى من قاموس المسميات ، أوصاف الأقصى والأوسط والأدنى وما إليها ، لأن وسائل المواصلات الحديثة قد جمعت الدنيا كلها فى مكان واحد . فهذه الطائرة التى تطوى الآماد طياً لم يحلم به أى خيال ، حققت وحدة العالم أو كادت ، ولم تجعل ساكن الصين أو الهند فى غربة غريبة عن ساكن مراكش أو البرازيل . ففى يومين اثنين تستطيع أن تذهب من أى مكان فى الدنيا إلى أى مكان آخر ، وتتخلل رحلتك راحة معقولة .

ورحم الله ابن بطوطة الذى ذهب من المغرب « الأقصى » إلى المشرق « الأقصى » فى ٢٠ سنة أو نحوها ! !

وإلى جانب الطائرة، صندوق العجائب — المسمى بالراديو — الذى لا ينقلك إلى أنحاء العالم ، ولكن ينقل إليك ما شئت من

أصوات الدنيا ولغاتها وأحاديثها ، وعما قريب سينقل إليك مناظرها بالتلفزة .

والصحف والكتب والسينما . . كل هذه من الوسائل الحاسمة فى تقريب الشعوب ، وضم الجماعة البشرية فى محيط أسرة واحدة .

وهذه الحرب الحاضرة التى اعتمدت على المواصلات السريعة ، والنقل الخاطف بأنواعه ، علمتنا كيف يتأثر كل العالم بما يحل بجزء من أجزائه . فقد كان يمكن فيما مضى أن يحارب الألمان الفرنسيين ، أو يخاصم الروس اليابانيين ، ولا يضار أحد إلا أهل هذه الأمم المتحاربة . أما الآن فقد انقضى الحياد ، وزال . وتشابكت مصالح الشعوب تشابكا يحمل كل فرد على أن يعرف عن هذا الكوكب الذى نسكنه كل شىء . ونحن نعلم الآن الكثير ، وسيعلمنا الزمن ما هو أكثر . .

تعلمنا أن سقوط سنغافورة فى يد اليابان حرم ثلاثة أرباع العالم من المطاط ، وحرمنى أنا ، وحرمك أنت من أن تجد وسيلة ميسرة ذلولا للانتقال من بيتك إلى عملك ، مع أن بعد ما بينك و بين الملايو كبعد الأرض عن السماء . . وهكذا !

فإذا حبب إلينا تلقى هذا العلم ، فيجب أن نبتدىء بفاتحته ، وهو الإقبال على كل حديث يضيف إلينا جديداً عن شؤون

شعوب الدنيا كنا نجهله . وليكن الحديث عن الصين مألوف الوقع على الأذن مثل الحديث عن اليونان أو الفرنسيين . بل ربما كانت هناك عوامل تحملنا على أن نكترث لحديث الصين ورجالها العظام ، وهى أن مستقبل البشرية كله ، قد يتعلق فى كفة هذا الشعب العجيب ، الذى كان يعيش فى عزلة ، ثم بدأ طرق الحادثات المدوى يوقظه رويداً رويداً . وإذا اشترك اشتراكا جديا فى سياسة العالم ، فستشترك مجموعة من البشر تقرب من نصف مليار نسمة ، يحركها غرض واحد ، وتسعى إلى هدف معين . .

وها نحن هؤلاء نرى الروس ، الذين لا يزيد عددهم عن ثلث سكان الصين ، يفعلون العجائب ، لمجرد أنهم أحسوا بأنفسهم ، وبقوتهم ، وبقدرتهم على تشكيل سياسة الدنيا كما يريدون . .

● ● ●

وهناك عاملان هامان جدا يحملان قراء العربية من سكان مصر وجاراتها على أن تلق بالها إلى الصين وشؤونها . .

أولهما الاقتصاد

وثانيهما الدين

فكلنا نتفق على أن الشعوب الغربية — أوربا وأمريكا — ازدهرت ، لأنها صنعت ، وباعت صناعتها لأمم أخرى ، بأرباح

وفيرة ، فتدفقت بين أيديها الثروات ، وأقامت حضارتها على أسس قوية متينة . و إذا أرادت هذه الشعوب أن تتابع حياة الرفاهية التى تحياها ، فلا بد لهـا من أن تدافع عن أسواقها دفاعا جبارا ، تستخدم فيه كل قدرتها الفكرية والمادية .

وكانت سياسة أوربا وأمريكا فى القرن الماضى وفى الثلث الأول من القرن الحاضر تتجه إلى حرمان بلاد الشرق — قريبه و بعيده — من إقامة الصناعات فيها ، حتى تظل سوقا تجاريا ، ومراكز للزراعة والمواد الخام ، واستهلاك السـلع الغربية . . ولـكن هذه السياسة تبدلت فى السنوات الأخيرة لأن أفق القواعد الاقتصادية اتسع ، وانتهى أعلامه إلى أن إنشاء الصناعات الجديدة فى أنحاء العالم يزيد رخاءه ، وزيادة الرخاء تساعد على كثرة التبادل ، و بهذا لا يضار ميزان التجارة ، ولا يخفض مسـتوى الإصدار ، و إنما يزيده . فمصر إذا غزلت ونسجت كل قطنها ، فستستورد الآلات والمواد الـكيماوية ، بدلا من الأقمشة التى كانت تستوردها ، كما أن ارتفاع مستوى الحياة بين الشعوب الشرقية سيزيد قدرتهـا على الشراء ، ويفتح أمامها آفاق التمتع بطيباتها ، فيكثر الطلب ، وتنشط التجارة فى جميع أنحاء العالم . .

وهذا قول سـديد ، يحسن أن تستفيد منه شعوبنا ، فهذا وقت البناء والتشييد . .

وإذن فستظل الأسواق العالمية مفتوحة للتبادل التجارى بين الشرق والغرب ، سواء قامت الصناعات الكبيرة أو لم تقم . وكانت الصين من أهم هذه الأسواق وأكثرها اجتذابا لسلع الغرب وصناعاته . .

وقبل هذه الحرب كانت انجلترا تملك فى الصين من الأموال الثابتة ماقيمته ٢٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيها ، وهو مبلغ يفوق ثروتها فى الهند نفسها . وكانت اليابان تملك مثل هذا القدر من المال . وتليهما أمريكا وفرنسا التى كانت كل منهما تملك خمسين مليونا . . وتستغل هذه الأموال فى البنوك والمصانع والسكك الحديدية والنقل البحرى والمنشآت الجديدة وغيرها .

وهذا غير التجارة المنقولة . .

فلما أعلنت اليابان الحرب على الدول الديمقراطية ، استولت على أسواق الصين فى المنطقة التى تحتلها . وسنرى بعد حين أن خوف اليابان من يقظة الصينيين قد يؤدى إلى ضياع أموالها ، فقررت أن تحمى أموالها . . بالاستيلاء على الصين نفسها .

وستفتح هذه الأسواق يوماً ما بانتهاء هذه الحرب ، ولكن تجارة الغرب — وأمريكا بصفة خاصة — أخذت تفتش على

أسواق جديدة ، وظهر أن الشرق القريب — أى بلادنا — يمكن أن تكون سوقا مفيدا ، تشتد المنافسة للظفر به بين الدول التاجرة.

ونحن نلمح فى هذه الأيام بوادر لهذه السياسة ، التى ترتبت على إقفال أسواق الصين ، وجاراتها التى وقعت تحت النفوذ اليابانى .

و إذن فليست الصين شرقا أقصى ، لا يهمنا ولا يعنينا . لأن ظروفها أثرت فينا . . فى لقمة القوت التى نأكلها .

ألم أقل لكم إن العالم تشابك وتقارب حتى لكأنه أمة واحدة ؟

●●●

وأما صلتنا الدينية بالصين فهى الإسلام .

وإذا ذكر الإسلام ، فقد قفز اسم مصر وبان دورها . والإسلام فى حياة الصين الماضية كان عقيدة . والإسلام فى حياة الصين الحاضرة أصبح عقيدة وسياسة . .

فالمسلمون فى الصين يتراوحون بين ٢٥ مليون نسمة ، و٥٠ مليون نسمة . ولكن التقدير الأخير أصح ، لأنه هو الذى يذكره الصينيون (ويزيدون عليه أحيانا) ، ويذكره كذلك اليابانيون .

وللمسلمين فى الصين — على الرغم من أنهم أقلية — مكان ممتاز لأنهم عناصر نشيطة . تلعب الآن فى حياة الصين دورا خطيرا

وقد رأت اليابان أن تضمن نفوذها فى الصين ، بأن تستميل لها العناصر الإسلامية . فأنشأت لها أولا سياسة إسلامية . وعقدت مؤتمرا لافتتاح مسجد فى بلادها ، دعت له بعض كبار المسلمين . ولكنها مع هذا لم تقنع المسلمين فى الصين بأن يتعاونوا معها . كما لم يقتنع أحد بحملة الدعاية اليابانية التى وصلت فى بعض الأوقات إلى القول بأن الميكادو نفسه أسلم .

ولما لم تنجح فى كل هذا بدأت تفكر فى مصر ، عسى أن تجد من نفوذها الكبير فى العالم الإسلامى ما يعاونها على تحقيق أهدافها . وقبل أن تبدأ هذه التجربة — كانت الحرب الحاضرة قد أعلنت — فهى حديثة جدا . .

و بطبيعة الحال ، فإن مصر التى احتملت وما تزال تحتمل فى سبيل حرياتها ، لن تكون بنفوذها الروحى عوناً لدولة استعمارية على تحقيق أهدافها .

ولكن مصر وزعماء المسلمين عامة ، يجب أن يدركوا أن لهم دورا هاما ، وأنهم مقبلون على عمل جسيم . ولأمر ما انتدب زعيم المسلمين فى الصين أحد رجاله الكبار ليزور مصر ويقدم لمليكها هدية ورسالة . وقد ظل المندوب فى القاهرة عامين يبحث ويدرس و يقول و يسمع . وسيعود قريبا جدا إلى بلاده لينقل لقومه صورة ما رأى . .

ولأمر ما دعت الصين وفد الصحفيين المصريين الذى كان مقدراً له أن يزور أمريكا لكى يعرج على بلادها . . ولكن الوفد اعتذر ، ولم يحسن لبلاده باعتذاره هذا . فحقا ليس فى الصين لهو ولا زهو ولا مرح من النوع الموجود فى أمريكا ، ولكن فيها كدح وجهاد من أجل الحرية والاستقلال . وكم كنا نود أن تحبب هذه الصفقة الجادة الصارمة إلى نفوس المدعوين ، مثلما حببت إليهم الصفقة اللينة الناعمة التى قبلوها مغتبطين .

ولكن كل المصريين ، وكل المفكرين فى الشرق القريب ، ليسوا كأصدقائنا الصحفيين . . . وعما قريب ستيسر الرحلة بين مصر والصين ، وستمتد أسباب التعاون الصادق بين العاملين من أبناء الأمتين لخيرهما معاً . .

● ● ●

ونحن لا نريد أن نطيل فى مقدمة هذا الكتاب ، فموضوع الصين موضوع هام وطويل . ولكن يحسن أن أشير إلى ما تواتر فى البرقيات الأخيرة خلال الشهور القريبة الماضية من أن موقف الصين الحربى أصبح خطرا ، وأن مقاومتها الباسلة العنيدة العنيفة للغزو اليابانى التى استمرت سبع سنين ، قد افترت قليلا نتيجة لضآلة تموينها بالعتاد وبالسلاح . . وبعد أن عزلت اليابان

غنيمتها الهائلة بحراً باستيلائها على كل سواحلها ، وبراً باستيلائها على طريق بورما ، تريد أن تعزلها جوا بالاستيلاء على آخر مدينة تهبط فيها طائرات الحلفاء .

وفى هذا التصوير لخطورة الحالة الحربيـــة فى الصين مبالغة . فإنا نقرأ برقية لزعيم الصين المرشال شيانج كاى ـ شيك يقول فيها إن شعبه مصرّ على طرد اليابانيين من سواحل بلاده .

أجل ، فلم يزد اليابانيون بعد حربهم سبع ســنين على أن استولوا على ســواحل الصين العظيمة المترامية الأطراف . وإذا ضعفت مقاومة الصين نتيجة عزلتها ، أو كفت ، فستفتح لها قريبا ثغرة الاتصال بالعالم الخارجى ، وستستأنف كفاحها ، أشد قوة ، وأوفر عزما . ولن يكون هناك حادث حربى أو غير حربى يحمل أحدا على أن يخطىء فيظن أن من الممكن لليابان أو لغيرها أن « تستعمر » الصين .

فقد قرأت هذا الـكلام ، وسمعته من كبار اليابانيين ، وذلك لسببين بسيطين ولـكنهما هامين : أولهما أنه لا يوجـد جيش فى العالم يستطيع أن يتسيطر على مساحة هائلة كالصين تزيد على مساحة أوربا بما فيها روسيا . . وثانيهما أن الشعب الصينى ضخم ،

لا يضيره أن يضحى بعشرة أو عشرين مليونا من أبنائه فى سبيل استقلاله .

ولا يصح أن يقال إن انجلترا مثلا تحكم مساحات كبيرة تزيد على مساحة الصين ، وشعوبا تفوقها عددا . ذلك لأن ما تحكمه انجلترا أجزاء متفرقة ، والصين أرض واحدة ، والأمم الخاضعة لبريطانيا مختلفة جنسا ولغة وطبائع ، وموزعة فى أنحاء الكرة ، أما الصين فأمة واحدة بكل ما للأمة الموحدة من خصائص جنسية ولغوية وتاريخية .

وسنرى بعد حين مصداق هذا الكلام عن الصين .

●●●

هذا ويحسن وأنا أنتقل إلى صلب الموضوع أن أتقدم لأصدقائى القراء بالشكر على عنايتهم وتقديرهم لأعداد هذه المجموعة الجديدة من كتب الشهر حتى لقد نفدت طبعتها الأولى بعد صدورها بأيام .

وستصدر الطبعة الثانية للكتابين السابقين بعد أسبوعين إن شاء الله ؟

محمد صبيح

الصين فى سطور

■ تزعم الأساطير الصينية القديمة أن الإنسان خلق قبل خلق السماوات والأرض ، تكريماً له وتعظيما لشأنه ، لأنه سيد الكائنات جميعاً . وهـذه النظرة قريبة من نظرة الإسلام الذى يقول إن الانسان خليفة الله فى أرضه .

■ يقولون إن الصينى لا يميـل كثيرا الى الأجنبى لسببين : أولهما أن للغربى رائحة خاصة ، وليس للصينى رائحة . وثانيهما أن أنف الغربى كبير . والشيطان وحده هو الذى يحمل فوق وجهه أنفا كبيرا .

■ مساحة الصين أكثر من ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ميلا مربعاً ، ومساحة أوروبا ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ ميلا مربعاً فقط

■ لم يحص أحد أهل الصين إحصاء دقيقاً . والفرق بين أعلى تقدير وأدنى تقدير هو ١٠٠ مليون نسمة ، أى جزء من عشرين من سكان العالم . ذلك لأن سكان الصـين يتراوحون بين أربع مئة مليون ونصف مليار نسمة .

■ عند ما طرق الأجانب أبواب الصين ، بدأ نظام الشرطة يدخل فيها ، وقبل هذا لم يشعر الصينيون انهم محتاجون الى بوليس

■ شاهد اثنان من الصينيين انجليزاً يلعبون التنس فى ناديهم ويبذلون فى المباراة مجهوداً شاقا . فقال أحدهما لصاحبه : يبدو أن هؤلاء الأجانب من الأغنياء ، فلماذا لا يستأجرون خدماً يقومون عنهم بهـذا العمل المضنى ؟ ! فسكت الثانى ، لأن الأمر كان لغزاً حقيقياً بالنسبة له

■ كانت الصين أمة موحدة لها حكومتها وفلسفتها وحضارتها عندما ظهر فى العالم سقراط والمسيح وشرلمان وأبو العـلاء المعرى ونيوتن و بسمارك . وعرف الصينيون حكيمهم العظيم كنفشيوس قبل أن تعرف أوربا اسكندر ذو القرنين و يوليوس قيصر

وحضارتها ترجع الى ٤٥٠٠ سنة أى أنها تضارع حضارة المصريين القدماء .

■ يقول الصينى « لين ــ يو ــ تنج » ان المجانين فى الغرب من الكثرة بحيث ينشئون لهم المستشفيات . والمجـانين فى الصين من القلة ، بحيث إذا ظهر منهم واحد عبده الصينيون !

■ ويقول هـذا الصينى نفسه : هناك سبب يدعونى إلى ألا

أسلم نفسي لجراح صيني ، وذلك لأنه إذا كشف عن كبدي ليخرج منها حصاة ، فإني أخشى أن ينسى أنه في عملية جراحية ، ويضع الكبد على سفود الشواء ليعد لنفسه منه وجبة شهية ! !

■ يوجد في الصين أغنياء وفقراء . والذين يستأجرون للعمل منهم يسمون الكولي « Cooly » . ولكن لا يوجد بين الصينيين طبقات . أي ان فئة الارستقراطيين التي تعتز بمولدها ، و بدمائها النسبية ، لم تعرف طريقها الى الصين مطلقاً .

وفي تاريخ الصين القديم كان يوجد النظام الطبقي ، ولكن على طراز لم يألفه العالم . فالطبقة الأولى في الامتياز ، كانت الحكماء وأهل الثقافة . والطبقة الثانية التي تليها الفلاحون . والطبقة الثالثة الصناع والتجار . والطبقة الرابعة والأخيرة الجنود والمحاربون . .

■ ولم تعرف الصين القديمة أو الحديثة امتياز الثروة أو الأسرة في الاختيار للوظائف العامة ، ولكن المقدرة على الكتابة كانت الميزة الأولى والأخيرة للمفاضلة في شغل الوظائف .

■ ولم يكن السن فارقاً في اختيار أي شخص لأي عمل . فاذا جاز للتقدم الامتحان أسندت إليه الوظيفة . والامتحان يشمل شباناً في العشرين وشيوخاً في الستين والسبعين .

■ ولهذا السبب أيضا كانت الصين أول الشعوب اختراعاً للورق والصحافة والبوصلة .

■ يواجه الفلاح الصينى كثيرا من الكدح والكد فى سبيل عيشه كالفلاح المصرى ولا عجب فنحن أقدم شعبين فى التاريخ !

■ يموت كل عام فى الصين نحو ٢ مليون نسمة من الجوع .

■ وفى سنة ١٩٣٥ — ولم تكن سنة أزمة ظاهرة — التقط من شوارع شنجهاى ٢٩٫٠٠٠ جثة صينية . ولم يمت هؤلاء فى حرب أو معركة دارت فى المدينة العظيمة . ولكنهم ماتوا جوعاً !

■ وتنافس الصين مصر أيضاً فى مسألة «البقشيش» إذ لا بد من أن تدفع ضريبة رسمية أوعرفية على كل عمل أو حركة . وقد روى أن أحد الزوار الأجانب دعا صانع ثياب لمقابلته فى فندق المدينة الكبير . فلما دخل عليه وجده يلهث من الاعياء ، لأنه صعد ١٦ طبقة من البناء الضخم ، مؤثراً هذا الجهد المضنى على أن يدفع « البقشيش » لعامل المصعد .

■ كل كلمة فى اللغة الصينية تتكون من مقطع واحد. وكثيراً ما تؤدى الكلمة الواحدة عدة معان ، اذا ذكرت وحدها . فكلمة

« شي Shi » مثـلا تؤدى ٢١ معنى . منها : تاريخ ، وأسـد ، وجثة ، وسوق ، ومنزل، وجيش ، وشعر ، ورقم ١٠ ، وضابط ، وحجر ؛ والأفعال : يستخدم ، ويعتمد على ، ويعلن ... الخ . . .
وليس هـذا فقط ، بل يمكن أن تزيد ٤١ معنى آخر . أو هكذا تقول دائرة المعارف البريطانية .

■ لا توجد فى اللغة الصينية حروف هجائية . ولـكن لـكل كلمة صورة . وفى اللغة الصينية نحو ٤٠ ألف كلمة . وفى الصين كلها نحو ١٢ عالما يعرفون كل الـكلمات الصينية .

■ وعندما يذهب الطفل الصينى الى المدرسة ، يتعلم قبل العاشرة كيف يكتب نحو ألفى كلمة .

■ تستعمل الجريدة اليومية نحو ٧٠٠٠ حرف فى كل عدد .

■ وصناديق حروف الجريدة الصينية تتكون من نحو ٣٠٫٠٠٠ حرف مختلف (صندوق الحروف العربى يتكون من نحو ٣٦٠ حرف) .

■ وعلى الرغم من اختلاف اللهجات والنطق فى مناطق الصين المختلفة ، إلا أنه يمكن القول بأن للصين لغة مكتوبة واحدة . ولهذا السبب يجزم الباحث بأن الصين أمة واحدة، وأما الهند مثلا فيصعب

أن تكون كذلك لأن فيها عدة لغات تختلف نطقا وكتابة .

■ ومع هذا فقد بذل الدكتور هورشى أبو النهضة الفكرية الحديثة فى الصين جهوداً كبيرة لتيسير الكتابة .

■ وكما كانت الصورة أساس اللغة الهيروغليفية ، كذلك لا تزال اللغة الصينية تعبر عن نفسها بالصورة . فكلمة «دردشة» مثلا يعبر عنها فى الصينية برسم ثلاث نساء ، وكلمة « خير » يعبر عنها بامرأة وطفل ، وكلمة « عبادة » يرسم لها رجل راكع ، وكلمة « الشرق » تصور بشمس مرسومة خلال شجر .

■ وتعانى اللغة الصينية صعوبة كبيرة فى التعبير عن المعانى الحديثة مثل الرأسمالية ، والشيوعية والجمهوريه . ولكنها احتالت بأن فسرت كل كلمة بجملة ، وذكرت ما يقابل هذه الجملة . فمثلا « برلمان » قالوا عنه [مناقشة ـ حكم ـ أمة ـ اجتماع] . « ديمقراطية » فسروها بقولهم [جميعا ـ سلام] . و« انتخاب » ذكروا عنها [ارفع ـ يد ـ من أجل ـ اختيار] . و«فوتوغرافيا» استعاضوا عنها بجملة هى [خذ ـ صورة ـ ماكينة]

وهذه طريقة مضنية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا الكلمات الأجنبية ، لأنه لا حروف لديهم .

■ عدد سكان شنجهاى أربعة مليون نسمة ، وهى حسب تعداد سنة ١٩٣٩ خامس مدينة فى العالم .

■ وفى شنجهاى من وسائل الترف ما قد يبز نيويورك والعشاء فى مطعمها الأول يمكن أن يكلف الشخص الواحد ١٢٠ جنيها ! ولا تنس ما ذكرناه قبلا من أن صرعى الجوع فى هـذه المدينة بلغوا ٢٩ الفا فى عام واحد .

■ فى شنجهاى ٦٠٪ من الصناعات الصينية كلها .

■ قبـل احتلال اليابانيين للمنطقة الأجنبية فى شنجهاى ، منذ عامين ، لم تكن تجبى أى ضريبة على الثروات الثابتة والمنقولة فى هذه المدينة . وسنرى فى الكتاب كيف أن الضرائب تجبى فى أنحاء الصين على كل شىء .

■ كثير من الثروات الضخمة فى الصين حصلت من تجـارة الأفيون . ووصل ثمن فدان الأرض فى بعض المنـاطق المزدحمة بشنجهاى إلى ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه .

■ وكان صحفى امريكى يصدر جريدة فى شنجهـاى ، وكان مقرها فى قسم من أحـد العمارات الكبيرة التى يملكها أحـد الأجانب . وحدث مرة أن دعا هـذا الصحفى ، صينيا كبيرا هو

الدكتور كونج لزيارة الجريدة ، ولما هم الزائر بالصعود فى المصعد رفض صاحب العمارة أن يستعمل الصينى هذا المصعد . وأصر على رفضه ، مما دعا الصحفى إلى أن ينقل إدارته إلى بناء آخر . والدكتور كونج تولى رياسة وزارة الصين بعد هذا الحادث بقليل !

■ وفى الصين أجنبي عاش هناك ٣٥ سنة دون أن يعنى بتعلم كلمة صينية واحدة .

■ أجر العامل الصينى المجد فى المصانع ، لا يزيد على ١٥ ريالا صينيا فى الشهر . والريال الصينى يزيد قليلا على ٣ قروش مصرية أى أن أجره فى الشهر يبلغ خمسين قرشا .

■ يشتغل العامل الصينى بين ١٢ و ١٦ ساعة .

■ وطريقة توريد العمال للمصانع هى أن يشترى متعهد من الآباء أبناءهم و بناتهم لقاء جنيه فى ٣ سنوات . ثم يؤجرهم فى هذه المدة للمصانع و بعد أن يتقاضى ما دفعه ومكسبه يترك الباقى للعمال والعاملات . واليابانيون هم الذين يعتمدون على هذا النظام .

■ كانت ميزانية الصين فى سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٨ تبلغ ٣٢ مليونا من الجنيهات أى أقل من ميزانية مصر . وهذا أكبر رقم بلغته ميزانية الصين حتى ذلك الوقت !!

■ وترجع ضآلة الدخل القومى إلى إعفاء رؤوس الأموال الأجنبية من الضرائب وسوء نظام المواصلات إلى حد مدهش. فسكك حديد الصين لا تزيد على ستة آلاف ميل. وطول السكك الحديدية فى الولايات المتحدة مثلا ٢٧٥٫٠٠٠ ميلا.

أمة السكون

فى كتاب « اى كنج » القديم :

« الرجل الذى يمشى فوق ذيل النمر دون أن يعضه النمر ، هو الذى ينجح . والتواضع يخلق النجاح » .

— ١ —

حكيم الصين

أما الحكيم فهو كونفشيوس ، الذى يعرف اسمه فى أنحاء العالم كما تعرف الصين نفسها . وكما يشوب علم العالم بأمر الصين غموض ملحوظ ، كذلك هذا الحكيم القديم ، أخطأ الناس منه أشياء أولها اسمه ، فقد دعاه أهله وقومه « كونج » ، ثم عظموه بقولهم « فو ـ تسيه » أى الأستاذ المبجل . فلما بدأ الاسم يتدحرج فى التاريخ ، من سهول الصين وهضاب التبت والقرغيز حتى وصل إلى أوربا ، لم تستطع أن تنطقه إلا كونفشيوس ، فكان كذلك . . وقديما قالوا خطأ مشهور خير من صواب مهجور !

وأخطاء أوربا عن شيخ الحكماء تتناول بعد الاسم ، التاريخ والرأى والكفاح من أجل فكرة الخير . حتى أن العلماء المحدثين[1]

---

(١) أهمهم العلامه زانكير الذى تخصص فى الدراسات الصينية .

انتهوا إلى أن الذين سبقوا فى الكتابة عن حكمة الصين وفلسفتها من جهابذة القرن التاسع عشر كانوا من العوام والأميين . .

وهكذا لا ندهش إذا رأينا برنارد شو يزور الصين من أعوام قليلة ، فتبهره عقليتها العميقة ، ونظرتها الهادئة الفسيحة المدى إلى الحياة التى لم تستطع الكتب أن تنقلها إلى الناس ، فيجزم بأن قيادة الفكر ستكون بيد الصين : « هذه الأمة التى يشترى الفرد العادى فيها الحكمة بالجواهر » .

ذلك لأن الستار رفع قليلا عن الصين ، وانفسح ما تحت السطح المشوش الخشن الذى يبدو للكافة ، فإذا كنز نفيس لا عهد للبشرية به . .

وللقدم تأثيره وسحره فى وضع المقاييس لرفع الشعوب وخفضها . ولسنا نريد أن نزعم أن الصين القديمة قدم الصخور والبحور . كانت أمة جليلة كاملة ، وإلا وقعنا فى وهم عظيم . ولكننا نحب — إذا حكمنا عليها — أن نقارنها بشعوب أخرى عاصرتها ، وزاملتها فى موكب الحياة وهى تزحف إلى أمام . .

نشأت حضارة الشعوب حيث جرت الأنهار الكبيرة ، لأن الرى المنتظم للأرض عن طريق النهر ، أعون على الاستقرار من الرى المتقطع عن طريق المطر أو السيل . فحضارة النيل وحضارة دجلة والفرات فى الشرق القريب ، وحضارة السند والكنج

فى الهند ، وحضارة نهرى الهوانج هو واليانجستى ، نشأت تقريبا فى أوقات متقاربة ، لأن الإنسان استقر ، وأمن ، وطعم وروى ، ولبس وتدفأ ، ثم أخذ يفكر فى الخلق والابتكار ، والتعمير والإنشاء . .

ومضت على هذه الشعوب قرونا طويلة . . عشرون مثلا أو أكثر ، وأخذت سنة النوم تغلب عليها فى شرق البحر المتوسط ، لكى تظهر فى الغرب دولة جديدة شامخة هى دولة الرومان ، وقد عصمت ضخامة الصين حضارتها فى مشرق الأرض ، من أن تتحلل بالسرعة التى تحللت بها حضارة الوسط . وبذا ظل ميزان الدنيا سليما يمسكه الرومان من طرف والصين من طرف .

وقد حاول الرومانيون أن يقتحموا آسيا ، ويلقوا بنظرة على هذه الأمة الشرقية الصفراء ، فسار قائدهم بومبى قبل مولد المسيح بـ ٦٦ سنة ، يخب على صهوة الخيل ، حتى وصل إلى بحر قزوين ، متتبعا نفس الطريق الذى سبقه فى سلوكه الإسكندر ذو القرنين ، ثم وقف الرومانيون هناك وهم يلهثون إعياء . وبعد حين أرسلت الصين قوة أيضا تطل على ما وراء هذا البحر ، فقد تسامعت عن الرومان وقوتهم ، ولكن لم يقدر لها أن تظفر من العلم بما تريد .

وبين هاتين الدولتين الكبيرتين ، وإلى الشمال حول هذا البحر الفاصل وعند جبال الأورال ، أخذت القبائل الهمجية من الهون والمغول والأتراك والتتار تتحرك شرقا وغربا.. أما الصين فقد حمت نفسها إلى حين بحائط عظيم سنقص قصته بعد قليل. وتستطيع أن تدرك أن الصين كانت أرسخ قدما من الرومان ، لأنها ثبتت في وجه أعاصير الهمج ، في حين أن دولة الغرب انهارت على عجل لأنها كانت أقل استقرارا ، أو قل إنها عندما أخذت تستطيب نعيم الحضارة ، وطراوة الحياة ، عصفت بها العاصفة . فقد كان كل مجدها على صهوة الجياد ، وتحت غبار الفتح ورايات الجحافل .

وأما لماذا استقرت الصين ، فلأنها كانت بلد الحكمة ، وبلد المصلحين . وصاحبنا كونفشيوس ، ومن سبقه ، ومن لحقه ، كانوا العمد الرواسي التي اتكأت عليها حياة الصين الروحية والمادية ، فوجدت عندها الأمن والاطمئنان .

فهذا الرجل الجليل ، الذي تحول إلى نبي أو إله ، أو ما تشاء من أوصاف الإكبار والإجلال . فقد ولد وظهر في عصر من أكثر عصور الصين فوضى . فقبل المسيح بأحد عشر قرنا تولت حكم الصين أسرة « شو » الامبراطورية . وفي عصر مقارب لعصر البطالسة في مصر ، وسابق لظهور المسيح بخمسة قرون ،

أخذت الفوضى تدب فى أوصال هذا الحكم الطويل الأمد ، حتى أن عدد الوحدات المستقلة التى انقسمت إليها الصين قاربت ستة آلاف ولاية .

ومن تحت أنقاض هذه الفوضى ظهر كونفشيوس الذى ولد سنة ٥٥١ قبل المسيح من أسرة رفيعة الشأن ، ولما تعلم وتزوج وكملت شخصيته ، أخذ يجوب ولايات الأمراء المستقلين ، ويدعوهم إلى تنظيم شؤون الحكم فى مناطقهم ، والإحسان إلى الرعية .

وقد وصف تطوره بقوله :

« فى الخامسة عشرة كنت أفرغ كل عنايتى فى الدراسة

« وفى الثلاثين كنت أسير بخطى أكيدة وحازمة فوق صراط الفضيلة

« وفى الأربعين لم يكن بعد لدى أى شكوك أو ريب

« وفى الخمسين كنت أحيط علما بناموس السماء

« وفى الستين كنت أفهم كل ما تسمعه أذنى

« وفى السبعين كانت كل رغبات قلبى متجهة إلى عدم مخالفة أية قاعدة أخلاقية »(١) .

وفى الوظائف التى تولاها ومنها مدير مديرية ، وسكرتير دولة ،

---

(١) كتاب الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب ص ٢٤٧ . وعنه وعن تاريخ العالم لويلز رجعت إلى بعض ما جاء فى هذا الفصل .

ووزير عدل . كان ناجحا ، حتى لقد زعموا أنه وقت توليه لوزارة العدل عطل تطبيق القانون ، لأن المحاكم لم تجد من تؤاخذه من الناس . .

ولكن هذه المناصب لم تدم طويلا فى يد الحكيم المصلح ، لأن الأمراء كانوا يخضعون لصوت البلاط الفاسد ، أكثر مما يصغون لصوت الحكمة والإصلاح ، فكان كونفشيوس يضطر إلى الرحلة من مكان إلى مكان ، وكل هدفه أن ينشىء فى إحدى الإمارات حكما قويما ، يحتذيه بقية الأمراء ، وتحقق نظرية « المدينة الفاضلة » .

وإصلاح الشعوب عن طريق إصلاح أداة الحكم ، كان فى كثير من الأوقات وسيلة الحكماء والفلاسفة . فنحن نسمع مثلا فى العصر القديم أن أفلاطون رحل إلى الطاغية ديونيسيوس حاكم إحدى مدن صقلية ، لكى يصلحه عن طريق الفلسفة . . وكان ذلك بعد عصر كونفشيوس بقرن ونصف قرن من الزمان . . ونسمع فى العصر الحديث أن حكيما آخر — هو جمال الدين الأفغانى — جاب المشارق كلها بحثاً عن أمير يصلح عن طريقه أمة من أمم المسلمين ، ويبث بحكمته روح العدل والتعالى فى بلاط الملوك . .

وكما أخفق جمال الدين ، وأفلاطون ، أخفق كذلك كونفشيوس . وشهدوا جميعاً مرارة الخيبة فى حياتهم ، حتى أن حكيم الصين قال فى آخر عمره : « هذه منيتى قد حانت ، ولما أجد بعد ملكا ذكى الفؤاد ألقنه تعاليمى » .

ولكن كونفشيوس كان مجدودا ، لأنه أنفق قطعة طيبة من حياته فى الكتابة والتأليف . . بدأ فلخص كل حكمة القدماء السابقين وكتبهم المقدسة ، وبذا صان أعظم تراث فكرى ظهر فى العالم القديم . ثم علق على هذه الكتب بما شاء . وألف بعد هذا كتبا ضمنها مذهبه فى الحكم والأخلاق والفلسفة .

وتعاليم هذا الرائد القديم فى الضمير الإنسانى تتلخص فى معرفة الواجب ، والاحتمال ، والاعتدال ، أوالبعد عن التطرف .. « حينما تكون النفس غير مهتاجة بأحاسيس حب أو غضب أو حزن أو سرور فهى فى حالة الاعتدال . وحينما تتولد هذه الأحاسيس فى النفس دون أن تتجاوز الحد المعتدل فالنفس فى حالة انسجام .. فالاعتدال هو الأصل ، والانسجام هو القانون العام » .

وقد تحدث كونفشيوس فى تعاليمه عن الاجتماع ، ونص بحزم وإلحاح على ضرورة رعاية آداب اللياقة بين الأفراد ، حتى أنه أسمى ابنه « لى » ومعناه « أدب اللياقة » . وهذه الدعوة لأن

يكون الفرد مهذبا لطيف المعشر من الناس ، هى نوع من أرستقراطية الأخلاق ، سارت عليها الأمة الصينية .. ومكنت فى نفسها فضائل جليلة أهمها الصدق ، والأمانة ، وتوقير الكبير ، وتدعيم بناء الأسرة .

وظهر غير هذا الحكيم آخرون تتفاوت مذاهبهم ، وأهمها على كل حال مذهب بوذا ، ومذهب لاو ـ تسيه . وكلها تلتقى عند نقط معينة ، يؤمن بها الصينيون ، وتطبع أخلاقهم على طابعها ..

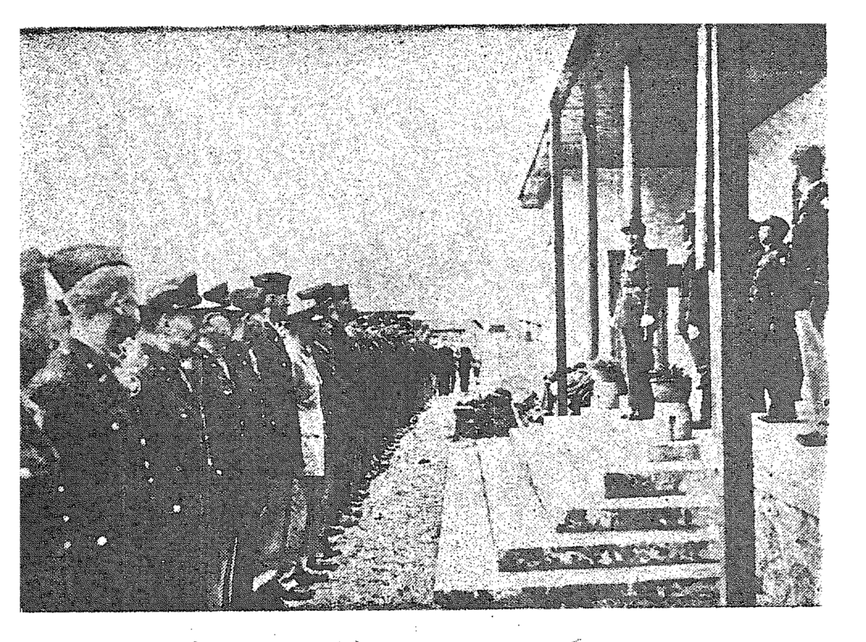
وإذا وجدت قوانين الأخلاق ، وتهذيب النفس ، فقد وجدت الشعوب مددا من الحيوية يقيم أودها فى محناتها القصيرة والطويلة ..

وبهذا نضيف إلى كل ما تقدم من عوامل جمعت الصين العظيمة الحجم، الوفيرة السكان فى أمة واحدة ، عاملا آخر لا يقل أهمية ، وهو مثلها فى الخلق والتكوين النفسى والاجتماعى ، التى أوجدها هؤلاء الهداة السابقون .

وإذا قلنا إن الصين الحديثة ظلت أمينة على قديمها ، فسنرى مظهر هذه المحافظة فى كل صفحة من صفحات الكتاب ..

وتلخص « العقلية » الصينية فى كلمات وردت فى كتاب « شو ـ كينج » القديم :

« الاعتراف بالجميل مع الجد
« والتلطف مع الثبات
« والحشمة مع البساطة
« والحزم فى السلطان مع الحكمة
« وسهولة الانقياد مع القوة
« والصلابة فى الاستقامة مع الوداعة
« والرحمة مع التمييز
« والشدة مع الإخلاص
« والشجاعة مع العدل » .



بعثات التدريب الامريكية تقدم نفسها للمارشال شيانج كاي شيك . ونرى كثرة عددهم

— ٢ —

ثورة الصحراء

ذكرنا فى الفصل الماضى ، أن العالم القديم أحيط بدولتين قويتين هما الصين — التى ظلت باقية — والرومان الذين ظهروا وارتفعوا ثم انهد بنيانهم مع الزمن . .

وذكرنا أن سكان الجبال حول بحر قزوين وفى شماله تحركوا شرقا وغربا ، وطرقوا أبواب هذه الدول .

ونضيف هنا إلى هـذه العوامل التى كان يضطرب بها جوف العالم القديم بين جدار الصين العظيم ، والمحيط الأطلنطى ، عاملا هاما ، قويا ، هو ثورة الصحراء الفتية القوية الجبارة ، التى تمثلت فى الإسلام . .

عرف العرب بلاد الصين من قديم عن طريق التجارة البحرية والتجارة البرية . وهنالك آثار تدل على أن هذه الصلات وجدت قبل الإسلام بقرن . فلما بدأت الرسالة المحمدية تنتشر فى الجزيرة

العربية أثناء حياة صاحبها ، كان رسول الله يدعو إلى طلب العلم ولو فى الصين . وكما يحث هذا الحديث سامعيه على طلب العلم ، فإننا نفهم منه أيضا أن الصين كانت بلادا بعيدة ، وكانت أيضا بلادا عالمة تستحق أن يهاجر إليها الناس ليتلقوا عنها الحكمة . .

ولكن هل اكتفى رسول الله بذكر الصين فى هذا المقام فقط ؟ أما التواريخ العربية المدونة المعروفة ، فلم تذكر شيئا أكثر من هذا . ولكنى سمعت من الأستاذ الثعالبى[1] رحمه الله أن فى الصين عقيدة شائعة ، وهى أن أول مسجد أسس فى الإسلام إنما أسس فى الصين ، واسمه مسجد سعد بن أبى وقاص ، وذلك لأن سعداً رحل إلى الصين ، ودعا ملكها وقومها بدعوة الإسلام ، فأقبل عليه كثيرون وأسسوا مسجدا ، وفى نفس مكانه يقوم الآن مسجد بهذا الاسم رأيت صورته معه .

وكما قلت ، فنحن لا نعلم أن سعداً كان من بين رسل النبى إلى الملوك . ولكنا نعلم أنه ليس هناك ما ينفى أن يكون

---

(١) الزعيم الإسلامى الرحالة السيد عبد العزيز الثعالبى ، كان من أكثر أعلام العصر الحاضر شغفا بالرحلة والتنقل ، وقد زار جميع بلاد الإسلام ومنها الصين ؛ وتوفى رحمه الله فى هذا الشهر الذى نكتب فيه هذا الكتاب ببلاده تونس .

النبي قد فكر فى ملك الصين ، فمملكته كانت أكبر ممالك الدنيا فى ذلك العهد . .

وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فقد أثبت التاريخ أن الصين لعبت دورا معينا فى تاريخ الفتوح الأولى . فعندما هوت البلاد الفارسية تحت قبضة الإسلام فر يزدجرد إلى سلطنة فرغانة ، ومن هناك كاتب ملك الصين العظيم «تاى تسونج» يطلب نجدته لاستعادة ملكه . ومات يزدجرد دون أن تصل له مساعدة الصين . وفى نفس الوقت الذى كان ملك الصين يتأمل فى هذا الحادث الذى هوى بعرش الأكاسرة ، جاءه مندوب من قبل قيصر الروم ينقل له خبر استيلاء العرب على معظم الامبراطورية الرومانية ، فرأى ملك الصين أن الأمر أخطر من أن ينتدب له — إن أراد — قوة بوليسية تتنزه نزهة عسكرية فى غرب آسيا ، فقرر أن يتابع درس هذه الحركة الجديدة .

وتولى خلفه فيروز المطالبة بعرش الأكاسرة ، وأرسل إلى الصين يطلب نفس النجدة التى طلبها والده ، فإذا بملك الصين الشهير مات ، وتولى مكانه ابنه كاو تسنج ، الذى اعتذر عن تقديم هذه المعونة . ولكنه قرر فى نفس الوقت أن يوفد بعثة إلى المدينة المنورة تنقل له الخبر اليقين عن أمر النبى محمد وهذا الدين الجديد .

فجاءت البعثة فى عهد أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، ولقيت عنده الخبر اليقين . .

ورد أمير المؤمنين على هذه السفارة بمثلها . وفى سنة ٦٥٠ ميلادية كانت مدينة سيانغو ، تشهد استقبال رسل الخليفة ، والحفاوة الفائقة التى أعدها لهم عاهل الصين فى عاصمته .

وهكذا بدأت الصلات الودية بين أقدم امبراطورية وأحدث امبراطورية فى ذلك الوقت .

ولكن قبل أن ينقضى نصف قرن على هذه السفارة ، كان توسع المسلمين فى وسط آسيا ، قد بدأ يستثير أطراف الصين . وقد حدث اصطدام بين قوة يقودها ابن أخ للامبراطور الصينى ، و بين جيش القائد الإسلامى العظيم قتيبة بن المسلم . ولم يلبث هذا الصدام أن انجلى عن فرار الأمير الصينى وتأمين الحدود الإسلامية فى شرق خراسان .

و يظهر أن شهرة قتيبة كانت قد طبقت آفاق الشرق البعيد وأنه بعد أن استولى على بخارى وخوارزم أحب أن يقتحم حدود الصين الأصلية . وتزعم الروايات أن امبراطور الصين علم أن قتيبة يريد قطعة من الصين ، وجزية ملكها ، براً بقسم أقسمه ليستولين على أرض الصفر . فأرسل الامبراطور حقيبة من تراب

بلاده وحقيبة من النقود ، وبذا يبر قتيبة بقسمه ، ولا يدخل مع الصين فى حرب [1].

ولم تهمل المراجع العربية الإشارة إلى تدخل وحدات صينية فى صراع العباسيين للأمويين ، عندما ثار أهل بخارى والصغد وفرغانة ، بمساعدة « ملك الصين » ، ولكن هذا التدخل كان محدودا ، إلا أن كلا من الدولتين : الصفراء والسمراء، إذا صح أن نطلق على دولة العرب لونها ، كانتا تحسان بعضهما ببعض إحساسا كاملا . .

ولكن الصلات الحسنة بدأت توجد بين الحكومتين فى عهد العباسيين . فهذا الخليفة العظيم هارون الرشيد ، الذى طالت يسراه شرلمان فى فرنسا ، مد يمناه إلى امبراطور الصين ، وأرسل له السفراء[2] ، ووطد معه دعائم الصداقة . . ولا عجب ، فقد بدأ الإسلام يغزو الوثنية الصينية ، ويتخذ لنفسه مقاما ملحوظا فيها . وإن كان مؤرخو المسلمين القدماء قد أهملوا كل إشارة إلى هذه الصلات ، اللهم إلا أن تكون حربا أومناوشات على الحدود .

---

(١) كانت الحملة على حدود الصين فى عامى ٩٤ و ٩٦ هـ .

(٢) تاريخ الخلافة لموير ص ٤٨٥ .

وسار تاريخ الإسلام فى الصين يحث الخطا ، ويسرع فى الزحف والتقدم ، حتى وصل إلى مركز ممتاز فى الكتلة الصينية .

ومنذ أقل من قرن أخذت النهضة العامية الإسلامية تنتعش ، فأنشئت لها المعاهد العالية ، ولفتت لها أنظار العالم . .

ولا عجب أن يذكر الأستاذ إسحاق ماسون فى كتابه عن مسلمى الصين أن اللون الأبيض فى الراية الصينية يمثل الأمة الإسلامية الموجودة فى داخل الحدود الصينية .

● ● ●

ولنذكر كلمتين عن دخول المسيحية إلى الصين . .

لم تعرف المسيحية طريقها إلى الصين أول ظهور المسيح أو بعده بقليل كما صنع الإسلام ، ولكنها وصلت إليها فى القرن السادس على يدى قسيس جرىء ذكى الفؤاد ، هو الراهب نستوريوس . .

إلا أن المؤرخين متفقون على أن المسيحية كانت بطيئة الانتشار فى الصين ، ذلك لأنها جاءت بمبادىء الرحمة والمحبة والزهد ، وهى مبادىء معروفة قديمة راسخة فى نفوس الناس هناك ، دعا إليها دعاة سابقون على المسيح بكثير .

ومع هذا فالدأب يصل بصاحبه فى نهاية الأمر . وقد كافحت البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستنتية كفاحا طويلا لنشر دينها ومذاهبها . وبعد أربعة عشر قرناً من دخول المسيحى الأول إلى تلك البلاد ، أحصى أتباع عيسى عليه السلام (عام ١٩٠٦) ، فكان الكاثوليك مليوناً وثلث مليون ، والبروتستنت ثلث مليون . .

إلا أن المسيحية ظفرت بشخصيات عظيمة الأثر فى تاريخ تلك البلاد ، فأبو ثورتها الحديثة الدكتور صن يات ـ سن مسيحى . وزعيم الصين الحالى ، شيانج كاى ـ شيك ، مسيحى أيضا . .

وتعيش المسيحية بجوار الإسلام هناك فى إخاء تام ، ويجدّ كل دين منهما فى اقتطاع جزء من البوذية ، التى يبدو أن صوتها قد أخذ يخفت ، بعد تقدم العلم ، ورقى العقل البشرى الحديث . فهذه المعابد ذات التماثيل والتهاويل لم تعد تجتذب أفئدة الناس ، وكثير من كهانها وكاهناتها فى حالة بؤس وكفاف .

ومع هذا فيمكن أن نقول إن الإسلام الصينى متلون بالمثل الأخلاقية التى تركها حكماء الصين العظماء وأولهم كونفشيوس ، ومن بعده منسيوس .

وهذه الطبيعة الهادئة الساكنة ، العظيمة التأمل فى عالم الباطن ، هى نفسها طبيعة الإسلام الصينى . . . الصين كانت ، ولا تزال ، وستظل ، بلد الاعتدال ، والبعد عن الإسراف والتطرف . .

— ٣ —

احداث جسام

وقبل أن نطوى صفحة الماضى ، نحب أن نقف وقفة قصيرة عند اسم فى تاريخ الصين ، لا تقل شهرته عن شهرة حكمائها العظام ، وهو الملك شى ـ هونج ـ تى ، الذى عاش قبل المسيح بقرنين ، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة عشر عاما ، ومع هذا فقد قرر أن يلغى تاريخ الصين السابق عليه — وهو تاريخ ثلاثين قرناً أو نحوها — وأن يكون هو الامبراطور الأول . . . فماذا عمل ؟

بدأ فأحرق الكتب القديمة ، وهذه غلطة كبرى . ولكن كانت تتجه إلى إيجاد أدب جديد ، ومثل مبتكرة يحتذيها الناس ، ولا يتأثرون بالماضى الذى دخلته خرافات كثيرة .

أحرق كتب الفلسفة والأدب ، وأبقى على كتب الطب ، والزراعة ، والفلك . .

ولكى يضع أساساً لأمن الصين ، أنشأ هذا الحائط العظيم الذى يسمى سور الصين ، كى يرد غارة المغول عن بلاده .

وهذا السور ليس أمرا عاديا ، ولكنه أحد أعاجيب الدنيا ، وكان من أكثرها نفعا ، وإذا قورن بأهرام الفراعنة فإنه يفضلها ، لأن الأهرام انتفع بها ملك ، وحققت فكرة دينية لفترة محدودة من الزمن . أما السور الصينى فقد انتفع به مئات الملايين على مر قرون طويلة متعاقبة .

وطول هذا السور ٢٥٠٠ ميل ، وحسبنا أن نذكر امتداد الحصن لهذه المسافة الهائلة لكى ندرك مدى ما أحدثه حكم هذا الملك الحازم من التنظيم الكبير فى بلاده ، والقدرة على التشييد التى لا تبارى .

وقد رأى أهل الصين أن يكرموا ملكهم هذا ، فأسموا بلادهم باسمه « شى » ، ومنها الشين China ، وألحقوا أنفسهم جميعا به ، فهم من سلالته .

ومن حسن الحظ أن محرقة الكتب التى قام بها هذا الملك لم تصل إلى كل مكان ، فقد أخفى رجال الدين فى معابدهم الكثير منها ، وإلا لما عرفنا كونفشيوس ومنسيوس وغيرهما .

وبعد حكم هذا الامبراطور توالت الحوادث ، ولكن أعاصير

المغول لم تقف دائما عند سور الصين ، ففى الوقت الذى كانوا يجتاحون فيه مشرق الدنيا ، تمكنوا من إيجاد ثغرة فى الحصن الكبير ، ونفذوا إلى سهول البلاد ، واستولى جند جنكيز خان على بكين عاصمة الصين عام ١٢١٤ م ، وتأسست فى الصين دولة مغولية .

إلا أن الصين كانت كالإسفنجة العظيمة ، فامتصت هؤلاء الغزاة ، ولم تلبث الأسر الصينية الحقيقية أن عادت إلى الحكم ، وآخر أسرة كانت أسرة المانشو التى أسقطتها الثورات الدستورية التى اجتاحت العالم فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن . وفى الوقت الذى كان حكم سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، عبد الحميد ، ينتهى فى تركيا بإقرار حق الشعب سنة ١٩٠٨ ، ويتنازل عن عرشه ؛ كان عرش الصين القديم العظيم . . عرش ابن السماء ، وابن المطر ، وابن مانشاء ، يتزلزل ، وفى سنة ١٩١١ انهار حكم الأباطرة ، وأعلنت الجمهورية الصينية تحت رياسة المجاهد الصينى الأول فى العصر الحديث ، صن يات — سن « Sun Yat - Sen »

ولاء الشعب

قال كونفشيوس :

« تقوم الحكومة على ثلاث :

« ١ — طعام يكفى الشعب

« ٢ — وقوة حربية تذود عن الشعب

« ٣ — ولاء من الشعب لحكومته .

« فاذا كان ولا بد من الاستغناء عن أحد هذه »
« العوامل ، فلنستغن عن القوة الحربية ، ونستبقى طعام »
« الشعب وثقته بحكومته . فاذا اضطررنا إلى المفاضلة بين »
« الطعام ، وبين الولاء ، فانى أوثر ولاء الشعب . ذلك »
« لأن الجوع يميت أفرادا من الأمة ، وأما فقد الولاء »
« فانه يميت الأمة نفسها » .

— ١ —

غبار كثيف

ظل عرش الصين موطد الأركان خمسة وأربعين قرناً كاملة .
اختلفت عليه أسر قليلة ، أقل من أصابع اليدين ، ولكن تقاليده
بقيت ؛ ونظامه لم يتبدل ، فى قليل أو كثير . فلما تذمرت
الصين ، وأدركها الملل ، قررت أن تعدل عن هذا النظام إلى
غيره .. فثارت ، وهدمت بناء شيدته هذه القرون الطويلة ..
فى مائة يوم فقط ! !

ما أصعب البناء وأشقه .. وما أسهل الهدم وأخفه ! !

حقيقة كانت الامبراطورية عجوزا ، ليس كمثلها عجوز
فى التاريخ . فقد أنهك طول العمر قوى مصر بعد ألفين من
السنين ، واحتاجت إلى مثلها من النقاهة وتجديد الشباب .
أما الصين فقد استمرت إلى حفنة من السنين مضت ، حتى
هرمت ، وتهدمت .. بل تعفنت فيها أداة الحكم . ولم يحتج

هدم هذا النظام إلى أكثر من عصبة من الرجال ، و بضع « أوقيات » من القوة والعزم المصمم .

وهـــذا ما حدث . وهذه بذاته ثورة على الحكومة الامبراطورية — امبراطورية ابن السماء — وثورة أيضا على تعاليم كونفشيوس ، ومدرسة الفلسفة القديمة ، التى كانت ترى كل شيء ممكنا ، إلا الاعتداء على حق الحاكم . حتى لنرى كل شيء كان يجوز فى شريعة الصين القديمة . . فقد القوة الحربية ، والجوع . . بل الموت جوعا ، إلا أن يحدث إخلال بحق الحكومة المقدس فى السيطرة على الرعية .

فلمـــا ثار ، نبى الوطنية الصينية الجديد ، الدكتور صن يات ـ سن ، كان لا بد من تفسير لجرأته على مقدسات الصين . . وجاء التفسير على عجل ، فقد تلقى علمه على الطريقة الغربية واعتنق الدين المسيحى . .

ولنسأل . . هل نجح ثائر الصين الأول فى تخليص بلاده من فساد حكم طال عليه الأمد ، أم أخفق ؟

نجح الدكتور «صن» وأخفق . فقد أنشأ الجمهورية ، ولكنه ذاق خيبة أليمة مريرة فى حياته ، لأنه عاش بعدها أربع عشرة سنة والصين تغلى كالمرجل ، ولا يستقر لها قرار . ومات سنة ١٩٢٥ ،

ولم يستطع الحزب الأول والأكبر الذى أنشأه فى الصين ، وهو « الكومنتانج » "Comintang" ، أى حزب الشعب الوطنى[1] أن يوجد حكومة مركزية تتسيطر على كل أنحاء الصين .

ولكن لو أن الأجل امتد به أربعة عشر عاما أخرى لما أدركت هذا الرجل الجبار لذعة الأسى التى مات بها ، لأن رفع الأنقاض التى تخلفت من هذا البناء الهائل الذى تداعى تحت قبضته ، كان يحتاج إلى وقت أطول مما قدر له .. وفى أثناء إزالة هذه الأنقاض كان لا بد أن يزكم الأنوف ويؤذى العيونُ غبار كثيف يتطاير حتى يحجب وجه السماء .

كيف ولدت الجمهورية ، وما الذى حدث فيها ، أو على الأصح ما الذى حدث لها ؟

ولد الدكتور صن ، طفلا فقيرا بائسا ، فى جنوب الصين عام ١٨٦٧ . وتلقفته البعثات التبشيرية ، فتنصر ، وتعلم ، ودخل أول مدرسة للطب أنشئت فى هونج كونج ، وكان أول طبيب نال إجازة منها . ثم اشتغل بالسياسة ، وظل ٢٠ سنة يجاهد فى الصين

---

(١) يتألف اسم هذا الحزب من ثلاثة مقاطع أو كلمات : « كو » أى وطن ، و « مين » أى شعب ، و « تانج » أى حزب .

وفى المنفى لإنشاء وتدعيم حزب الكومنتانج . وقد غلظ أمره، وبان خطره، فنفى، ولكن نفوذه زاد قوة حتى أن الامبراطور أعلن عن جائزة قدرها ١٠٠٠٠٠ جنيه لمن يعود به إلى الصين، فاختطفته عصابة صينية من قلب لندن، ولكن أدركته نجدة البوليس الإنجليزى فى آخر دقيقة .

ونضجت الثورة فى أواخر سنة ١٩١١، ونجحت فى سنة ١٩١٢ . وعاد الدكتور صن إلى بلاده، مثلما عاد مزاريك من منفاه، ليتولى الأول رياسة جمهورية الصين، وليتولى الثانى رياسة جمهورية تشيكوسلوفاكيا . وكل الفرق بين الرجلين، أن أولهما عاد من لندن ليتولى رياسة أكبر جمهورية فى العالم، وعاد الثانى من وشنطن ليتولى رياسة جمهورية صغيرة فى أوربا .

وارتفع الدكتور صن فى أعين قومه، تماما كما ارتفع كونفشيوس . وربما كان الرجل التالى له فى تاريخهم كله . ولما أدركته علة السرطان التى قضت عليه، أصبح قبره — كقبر لينين — مقصد الزائرين والطائفين من أنحاء الصين، وأسميت باسمه العامى [شونج - شان] آلاف المدن والشوارع فى الصين[1].

---

(١) يوجد فى الإنجليزية قاموس لأعلام الأحياء . ولما مات الدكتور صن أسقط القاموس اسمه . فاحتجت الصين احتجاجا عنيفا على مؤلف هذا القاموس الشهير فأعاد اسمه . وكان العلم الوحيد المذكور من الأموات .

وقد لخص الدكتور صن مبادىء حزبه فى ثلاث : الوطنية ، والديمقراطية ، ورفاهية الشعب .

والوطنية عنده هى إلغاء الامتيازات ، والتدخل الأجنبي ، و بسط سلطة الحكومة الصينية على كل أرض الصين .

والديمقراطية هى دعوة الشعب لانتخابات حرة ، كى يرسل مندوبيه الذين يُشرعون ، ومن بينهم ينتخب الحاكمون .

ورفاهية الشعب المادية تتحقق من الأخذ بنصيب من النظم الاشتراكية يزدهر به اقتصاد الأمة ، وتوزع ثروتها توزيعا عادلا .

وقد أعلنت هذه المبادىء بهذا الإيجاز وهذا الوضوح عام ١٩٢١ . وحتى ذلك الوقت لم تكن الديمقراطية قد عرفت فى الصين ، ولا وجدت لها كلمة فى لغتها .

وكان الدكتور صن رجلا عالى الوطنية ، مثالى الكفاح ، عملى النظرة إلى الحياة . وحسبك أن تعلم أنه بعد أن أعلن برنامجه قرر أنه لا يتحقق هذا البرنامج إلا إذا وجد فى الصين ١٠٠٫٠٠٠ ميل من السكك الحديدية ، ومليون ميل من الطرق الأرضية . .

ووقفت أوربا من هذا الرجل المجاهد ، على رأس أكبر أمم

الأرض ، موقفا مخزيا . لأنها كانت تخشى أن تتحقق أحلام صن ، فترتقى الصين ، ويقضى على امتيازات دولها . .

ولذا وجه الدكتور « صن » وجهه شطر روسيا السوفياتية ، فأرسل رجله الأول « شيانج كاى ـ شيك » إلى موسكو ليعقد أول محالفة معها .

وعلى الرغم من حاجة زعيم الصين لمعونة روسيا ، إلا أنه كان قويا . . لأنه كان بطلا . فتحالف دون أن يدفع الثمن . وقرر فى معاهدته مع مندوب روسيا :

« يقرر الدكتور « صن » أن النظام الشيوعى ، »
« والنظام السوفياتى لا يمكن تطبيقهما فى الصين . »
« لأن الظروف التى أدت إلى أعتناق روسيا لهذه »
« النظم ونجاحها فيها لا توجد فى الصين . »
« وتشاطر الحكومة السوفياتية حليفتها الصين فى »
« هـذا الرأى . وترى أن أعظم مشكلة تواجه »
« الصين ويجب أن تتوفر على حلها هى تحقيق »
« وحدتها الوطنية ، وبسط سلطتها الكاملة على »
« أرضها بوصفها دولة مستقلة . »

وأقبل على الصين المستشارون الروس ، مثل ميخائيل بورودين.

ولكن هذا الاحتياط الذى وضعه أبو الجمهورية الصينية لم يحل دون أن تسقط على ثوب الصين بقع حمراء من الشيوعية . وما لبثت هذه البقع أن اتسعت حتى تحولت إلى حكومة فى «هانكو» ؛ ولكن خليفة الدكتور صن — وهو المارشال شيانج — جاهد للقضاء على هذه النزعة .. لأنه كان وطنيا ..

— ٢ —

أمراء الحرب

تولى الدكتور « صن » رياسة الجمهورية الصينية لفترة قصيرة بعد إنشائها . ذلك أن روح الصين القديمة المحافظة لم تكن قد ماتت تماما فى ثورة المئة يوم . فقد اضطر إلى أن يتخلى عن الحكم لأحد رجال العهد القديم « يوان شى — كاى » ، وحل البرلمان وسط ضجيج من بعض الناس الذين راحوا يصفون الدكتور صن بأنه خيالى حالم . . وهكذا لم تكن الصين أول أمة ترجم أنبياءها بالحجارة ! !

واضطر الزعيم الشعبي إلى أن يعلن الثورة على خائنى الثورة ، وغرقت الصين فى بحر من الدماء ، ومات مئات من أتباع الدكتور صن على أعواد المشانق .

واستبدلت الصين الامبراطورية بدكتاتورية . ثم قامت الحرب العالمية الماضية .

وللحروب مفارقات عجيبة . فقد كانت بين انجلترا واليابان محالفة ، اتكأت عليها حكومة طوكيو ، وأعلنت الحرب على ألمانيا لكى تنتزع المراكز الألمانية فى الصين ، وتضيف إلى قوتها معاقل جديدة . وقد كرهت انجلترا هذه الحركة ، ولكنها لم تستطع أن تتفاداها ، وكأنها كانت تشم ريح المستقبل ، فبعد ٢٧ سنة وثبت اليابان من هذه المراكز على أملاك انجلترا وأمريكا فى البحار الآسيوية . . .

وكانت شهية اليابان مفتوحة فى الحرب الماضية ، فبعد استيلائها على المعاقل الألمانية . ففى سنة ١٩١٥ قدمت إلى حكومة « يوان » مذكرة من واحد وعشرين مطلبا ، لو أنها تحققت لما زادت الصين عن أن تكون مستعمرة يابانية .

وكان مجرد تقديم هذه المطالب فرصة أثارت الحنق الأكبر على هذه الحكومة الجديدة ، التى كان سيدها يستعد لأن يجلس على عرش الأباطرة . وتبخرت فكرة الامبراطورية ، ولكن الثورة ظلت مستمرة تنتشر ألسنتها الحمراء من مكان إلى مكان ، ولم يوقف الأمور عند حد مؤقت إلا موت « يوان » . .

وتولى مكانه حاكمان ، أحدهما فى رياسة الجمهورية ، والثانى فى رياسة الوزارة . أما الأول فكان مخلصا للمبادىء الديمقراطية

متمسكا بها . وأما الثانى فكان من رجال الحرب ، لا يؤمن لهذه البدع التى يراد حمل بلاده عليها .

وهكذا ظلت الجمهورية تضطرب بين أيدى الطامعين فى النفوذ والسلطان ، الحانقين عليها والمتمسكين بها . وأخذت العصابات العسكرية تتألف فى أنحاء الصين الفسيحة ، وكل رجل من أصحاب الإقطاع يدعى لنفسه قيادة ، وحكومة ، ويحاول أن يحدث انقلابا . . . وهكذا انقلبت الصين إلى أتون يأكل بعضه بعضا . .

وفى وسط هذا الضجيج المتعالى من جنبات الصين ، وفى وسط وثبات سادة الحرب وتجارها ، كان الدكتور « صن يات ـ سن » يدأب على نشر الفكرة الدستورية ، ويجاهد فى صبر وإصرار على أن يصدر الدستور الذى كانت تعد مواده من سنة ١٩١٥ . . وبعد تسع سنوات أى فى عام ١٩٢٤ صدر الدستور (بعد صدور الدستور المصرى الحديث بعام واحد) .

وبعد عام مات الدكتور « صن » كما ذكرنا .

● ● ●

ولكى نأخذ صورة صحيحة عن حالة الصين فى هذه الفترة من الفوضى المخيفه ، التى ساد فيها نفوذ أمراء الحرب ، ننقل

نبدأ من رحلة الصحفى الأمريكى الشهير «ميلز فون Miles Vaugh» فى الصين خلال هذه الفترة[1] ، وكان مديراً لشركة الأنباء المتحدة الأمريكية فى الشرق الأقصى . . قال :،

●●●

نشأ نظام أمراء الحرب فى الصين — فيما أعتقد — كنتيجة لطريقة الحكم التى سار عليها « يوان شى ـ كاى » . فقد أحاط نفسه بعدد من القواد القادرين ، ودرب جيشا كبيرا ، وأخذ ينتهز الفرصة لينصب نفسه امبراطورا . وكان هذا النظام غير ضار طالما كان منشئه حيا . فلما مات لم يترك من بعده من يخلفه عليه ، وبدلا من أن يدين هؤلاء القواد بالطاعة لحكومة مركزية ، آثروا أن يخدموا أنفسهم ، ويستجيبوا لمطامعهم الخاصة . فاقتسم الأقوياء النفوذ أو تخاصموا عليه ، وانضم لكل واحد منهم القواد الأقل مقدرة .

وتركز جهاد حزب الكومنتانج فى كفاح نفوذ العسكريين ، وإعادة الوطن إلى وحدة متناسقة تخضع لحكومة مركزية واحدة . .

---

(١) اسم كتابه Covering the Far East

وفى سنة ١٩٢٩ قمت برحلة إلى بكين ، وكانت هذه العاصمة هادئة ، ومخازنها التجارية مفتوحة . وأنفقت زوجتى الأسابيع التى أقمناها هناك فى مشترى ما يروق لها من نفائس الصين حتى عبأت ٦٦ حقيبة ! ! ولما قررنا العودة أرسلت أحد غلمان المكتب (توكيل شركته التلغرافية) إلى محطة سكة الحديد مع متاعنا . وبعد فترة من الزمن عاد يقول إن السفر إلى تيانتسن يقتضينا ضرائب بلدية على هذا المتاع . فذهبت إلى المحطة لأرى ما هنالك ، وإذا بالضرائب المطلوبة ١٠ ./. من قيمة حقائبنا . فاضطررت لأن أتوجه إلى الحاكم — وكانت لى به صلة — فأعفانى من الضريبة وحصلت منه على جواز سفر حربى يسهل لى اجتياز المناطق المختلفة .

وفى الطريق إلى تيانتسن وقف القطار عند محطة متوسطة ، وأمر الجنود جميع الركاب بإخلاء القطار . وخيل لى أن الجواز الحربى الذى حصلت عليه من الجنرال « ين » سيجنبنى متاعب لا طائل تحتها ، فأطلعت الضابط عليه ، فقال لى إن هذا الجواز لا يغنينى شيئا ، لأنى هنا فى منطقة الجنرال « فنج » ، ولا بد من دفع ١٠ ./. من قيمة المتاع . .

ودفع جميع الركاب ، وظللت أجادل ، وأخيرا تغلبت على

هذه العقبة بأن رشوت الضابط بزجاجة نبيذ ، و بوعد أن أحصل من قائده على تصريح إعفاء من الضريبة ! !

وأخيرا وصلنا إلى تيانتسن فى الغسق . وكانت تهب فى هذا الوقت عاصفة محملة بتراب يستحيل على الإنسان معه أن يتنفس . فأسرعت بزوجتى من القطار إلى تاكسى ، لكى تذهب إلى الفندق ، على أن ألحق بها على عجل بعد حمل المتاع إليه .

وتبين لى أنى أيضا فى منطقة الجنرال « فنج » ، وأنه لا بد من دفع ١٠ ./. من قيمة حقائبى ، مثل جميع الركاب الذين دفعوا الآن لثالث مرة .

فأخذت أجادل ، وأحاور فى غير جدوى ، وأنا فى شدة الانفعال من حجزى فى هذه العاصفة لكى يطبق على نظام من أجرأ أنظمة التلصص فى العالم . وزاد ضغط التراب على ، واستبد بى الغضب ، عندما نفخ الضابط فى صفارته ، فأقبلت شرذمة من الجند الممزقى الثياب لإكراهى على ما يريدون . وكانت عصاى فى يدى ، فدفعت جابى الضرائب الذى كان يكتنفنى فى صدره ، فسقط يتدحرج بين حقائبى ، ثم انهلت عليه بعصاى ، ورفسته بقدمى . .

وكان هذا العمل منى وسط جند مدججين بالسلاح انتحارا محققا لم أدرك حقيقته ، ولا فكرت فى عواقبه .

ولكن كم كانت دهشتى عظيمة عندما وجدت الجند بدلا من أن يصوبوا إلى سلاحهم قد فغروا أفواههم عجبا ، ثم راحوا يقهقهون بأصوات منكرة . .

ذلك لأن سقطة صاحبهم على الأرض ، قد ألحقت به العار . . أو كما يقول التعبير الصينى الحرفى « أفقدته وجهه ! ! » .

● ● ●

وأما كيف يفقد الصينى وجهه ، أو يحس بأن العارقد لحقه ، فهذا طبع صينى أصيل ، ومزاج خلق مركب من فضائل ونقائص متعددة . . وقد ذكرنا قبل أن حكيم الصين الأكبر كونفشيوس نص على أن يكون أدب المجاملة من أهم قواعد الأخلاق فى الجماعة الصينية . وترتب على تأصل هذه العادة أن أصبح الصينى شديد الحساسية بكرامته ، وبرأى الناس فيه . فإذا حدث حادث نجم عنه أن يخدش ناموسه ، أو ينتقص من مكانته بصورة من الصور ، فإنه « يفقد وجهه » أو يلحقه العار . ويستوى أن يكون الحادث وقع من الفرد فاستصغره الناس من أجله ، أو حل به من غيره ، فصغر فى أعين الناس .

ولكى ندرك هذه الطبيعة على حقيقتها ، يحسن أن نضرب لها أمثلة :

ذهب صحفى كبير لمقابلة أحد القواد ، وكان حاكما لمقاطعة كوانج تونج ، وبقى مع القائد ساعة ، وكان زوار آخرون فى الانتظار . فلما خرج قال له أصدقاؤه من الصينيين : « لقد مكثت ساعة كاملة . إن لك (وجهاً) عظيما » .

وسنروى بعد حين تاريخ حياة المارشال شيانج كاى ـ شيك ونذكر قصة اختطاف أحد القواد له . ولكنا نقتطف هنا من هذه المأساة حادثة ، وهى أن المارشال لم يتناول وهو فى أسر خاطفه لقمة واحدة من الطعام ، لأنه لو فعل « فسيفقد وجهه » أى يلحقه العار . .

ولما زار جون جنتر الصين ، كان وزنه ۲۱۰ أرطال ، ووزن زوجته ۱۱۰ رطلا فقط . وقد رفض « الكولى » الذين يسحبون العربات الصينية المعروفة بالريكشا ، أن يحملوا السيدة وتزاحموا على حمل السيد لأن وزنه أكثر ، وجر من يقل وزنه يفقد « الكولى » وجهه .

وتحدث أحد رجال التمثيل الأجنبى فى الصين قائلا إنه عندما كانت تسد أمامه جميع المسالك للحصول على ما يريد ، كان يهدد

بأنه « سيفقد وجهه » أمام حكومته ، فيلبى طلبه .

وكان أحد الضباط الألمان يدرب الحرس الخاص بالمارشال شيانج . ووبخ مرة أحد الجنود أمام زملائه لأنه سرق شيئا ، فما كان من الجندى إلا أن انتحر ، لأنه « فقد وجهه » بطريقة لا إصلاح لها . وهذا على الرغم من ندرة حوادث الانتحار فى الصين ، على عكس اليابان التى يعد قتل النفس فيها من الأمور المألوفة .

ودعت سيدة صينية زائرين لتناول الطعام عندها ، فحضر أحدهما واعتذر الثانى ، فقالت للذى حضر : « أى وجه سأفقد بتخلف صاحبك » .

و « فقد الوجه » يسبب فى حياة الصين العسكرية ارتباكات كثيرة ، لأن خشونة الجندية تستدعى أحيانا أن يؤنب الضابط جنوده ، والقائد منهم تحت إمرته . . وما هكذا صيغت النفسية الصينية ، لأنها لا تستسيغ بحال هذه العقوبات ! !

ومن أطرف ما يروى ، أن من المتعذر إبقاء وحدات من الجيش فى الاحتياطى مدة طويلة ، لأنه يخشى أن تفقد وجهها ، بعدم تقديمها إلى صفوف الجيش العامل .

ومن جملة الشواهد التى ذكرت ، نستطيع أن ندرك أن

تجنب العار ، أو الاحتفاظ بالوجه ، إحساس أعم من الإحساس بالشرف ، أو الكبرياء ، أو الوقار ، أو الشهرة . هو مزيج منها جميعا . . ولكن على الطريقة الصينية .

●●●

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنا بصدده من الحديث عن أمراء الحرب ، الذين انتهزوا فرصة سقوط الامبراطورية ، وضعف نفوذ الحكومة المركزية ، وراح كل واحد منهم يجمع حوله جيشا ، ويحكم على هواه ، فى استقلال ، بل فى خصومة مع كل شيء ، وعلى الأخص جيرانه . فهو يصدر النقد ، ويسن القوانين ، ويفرض الضرائب ، ويصنع بالناس ما يشاء .

وقد ترتب على هذه الفوضى المطلقة ، أن شلت الحياة الاقتصادية شللا مخيفا . فالضرائب الفادحة التى كانت تحصل من الأهالى ، ومن الفلاحين بصفة خاصة ، كانت تطحن حياة الصين طحنا. وفقد الأمن، وفقد الثقة، وحالة الخوف المستمر من أن يأتى كل صباح بتغيير يهدم حكما و يبدله بآخر قد أحالت الصين إلى جحيم.

ومن أطرف ما روى فى هذا الباب أن أحد تجار الأسلحة ، كان يعامل قائدا من حكام إحدى المناطق ، وضرب له موعدا خارج المدينة ، فقدر التاجر أن منيته حانت ، لأن هذه أسهل

وسيلة لتسديد الدين ، وربما كان هذا التاجر حقيقا بهذا الثمن ، إلا أنه ذهب مع صديق له عسى أن تنجح مغامرته ، ويظفر بالمال .. وسلمت له حزم مربوطة، خشى إن فتحها أن ينقض عليه الجنود فيقتلونه ويسلبونه ما معه . فصبر وهو يحترق لهفة حتى وصل إلى المدينة ، وإذا ما معه أوراق مالية جديدة من عملة هذا القائد .. ونصحه صاحبه أن يعجل بإنفاقها هذه الليلة ، فقد تكون الأوراق مزيفة ، وقد يأتى الصباح بقائد جديد ، فتسقط كل عملة القائد السابق .. ولم يتردد التاجر ، فأنفق ألوفه على حفلات خمر ونساء . ولما كان الصباح ، ذهب بالقليل الباقى إلى بنك المدينة ليستبدله بعملة أجنبية ، فقبل البنك أوراقه .. فلم تكن مزيفة ، وما يزال القائد حتى الآن صاحب السلطان فى الإقليم .. وكاد يجن التاجر من الكمد لأنه أضاع ثروته باختياره فى ليلة !!

وهذه القصة — وهى صحيحة — تصور لنا حقيقة حال المال والمعاملات التجارية فى عهد أمراء الحرب ..

ترى هل كان صوابا ما رآه حكماء الصين القدامى ، من أن الولاء للحكومة أصل من أصول الحياة ، يسبق الدفاع عن الوطن ، ويسبق إطعام الشعب ؟!

هذا الظلام الذى ران على الصين فجأة يكتب بحروف سود

غلاظ أن هذا حق ، وأن الصينى لـكى يعيش ، يجب ان يخضع لحكومة مركزية قوية تسلبه إدارته . .

وإذن فهل من الصواب ، أن تكون الديمقراطية ثوبا صالحا يلائم الصين ، ويقيها شرور الفوضى ! . . هل كان حقا ما فعله بالصين وطنيها الأول الدكتور « صن يات ـ سن » الذى أقام جمهورية لا تقوم ، وبنى للناس بناء لا يدوم ، وعلمهم علما لا يفهم . . . وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم رفع الدكتور صن إلى مقام القديسين ، وسمى نبى الوطنية ، وأضيف إلى قائمة عظماء التاريخ ؟ . .

ويجيب على هذا السؤال تلميذ الدكتور « صن » الأول ، ومنفذ رسالته ، المارشال شيانج كاى ـ شيك . . يجيب لا بالكلام ، ولكن بالعمل . وقد أحسن جنتر عندما قال إن الدكتور صن كان « محمد » الصين ، وشيانج « عمر بن الخطاب » فيها . . فقد ترك كل منهما شريعة ، وخطط نظاما . وجاء خليفته فنفذ الشريعة ، وحقق الخطط . . وإذن فلنقل من هو هذا المارشال الذى خاض غمار هذه الفوضى ، وضرب فى أنحائها ، بعزم من جديد ، حتى تمكن من أن يشق للنظام طريقا ، وأن يوجد

الصين مرة أخرى ، وقد صقلت روحها محن مروعة ، وجلتها نيران ملتهبة متأججة ؟

من هو هـذا الرجل الذى واجه كل قوى الشر بمفرده ، ولم يكن ينظر إليه فى أول الأمر إلا أنه واحـد من هـذه القوى الشريرة ؟ . . .

من هو هذا الرجل الذى قال له أحد مستشاريه إن عليه أن يعدم الخونة رميا بالرصاص ، فنظر إلى صاحبه متأسفا ، وقال : من سوء الحظ أنه ليست لدىّ ذخيرة تكفى لاعدامهم جميعا !!



المارشال وزوجته يستقبلان أحد الزوار الاجانب ونرى صورة حائط من بناء خلفهما
وقد موهت على طريقة الـكاموفلاج الحربي

٣

فى خدمة الميكادو

فى سنة ١٨٨٧ ولد « شيانج ـ كاى ـ شيك » فى قرية من قرى مقاطعة « شكيانج » ، واسم القرية « شيكو » . ولا حيلة لى فى كل هذه « الشينات » الموجودة فى اللغة الصينية ، فكذلك كانت وما تزال . ولو أن العرب سموا هذه البلاد بالاسم المنطوق ، لقالوا « الشين » لا « الصين » كما هو اسمها فى اللغات الأوربية !

وهذه المقاطعة فى جنوب الصين ، وعلى شاطئها . وكانت عرضة للاتصال بالبحارة الذين ارتادوا البلاد فى العصور الأولى وأهمهم العرب والبرتغاليين . ولا يستبعد جون جنتر ، أن تكون دماء من أحد هذين الشعبين قد جرت فى عروق رجل الصين الأول .

ولم تكن أسرة الوليد غنية ، وتزوج أبوه ثلاث مرات ، وأنجب خمسة أطفال ، أكبرهم شنيانج . وقد لقيت الأسرة الأمرين فى إرسال ابنها البكر إلى المدرسة . ولكن لم يكن الغلام نابها ، ولا لماع الذكاء . ولذا قطع سلسلة تعليمه البطىء الممل ، وقرر أن يكون

مجدداً . والتجديد إذ ذاك كان يقتبس من جارة الصين الفتية ، اليابان .

سافر شيانج إلى اليابان ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره ، وغايته أن يلتحق بمدرسة حربية ليصبح ضابطا . ولكن الأبواب أقفلت فى وجهه ، لأنه لم تكن معه توصية من حكومة بلاده . فعاد الشاب الى بلاده ، ولم يفتر عزمه عن الدراسة العسكرية ، فقد كانت ملابس الضباط ، ومشيتهم مما يفتن الاب . ولم يجد صعوبة كبيرة فى الالتحاق بالكلية الحربية قرب بكين .

ولم يتعذر عليه بعد هذا ان يواصل فكرة التجديد ، فرحل الى اليابان ، ودخل كليتها الحربية . ثم التحق بالجيش اليابانى .

اجل التحق الضابط شيانج كاى ـ شيك بالجيش اليابانى وخدم فيه بضع سنين . . وما أشبهه فى هذه الحالة بضابط فرنسى من كبار الثائرين تعلم فى المدرسة الحربية ببرلين والتحق بالجيش الألمانى .!!

ولكن القدر كان يهيء هذا الضابط الشاب لعمل جسيم . ساقه إلى اليابان وإلى خدمة الميكادو ، لكى يلتقى هناك بالدكتور صن يات ـ سن . وكان لقاؤهما عام ١٩٠٩ ... وكان شيانج فى الواحد والعشرين من عمره .

وظل شيانج عامين آخرين فى الجيش اليابانى ، ولكنه انضوى تحت لواء الزعيم الصينى ، والتحق بجمعيته السرية التى كانت مقدمة لإنشاء حزب الكومنتانج .

ولم يكن ذهاب الوطنيين الصينيين إلى اليابان غريبا ، فقد جذبت نهضتها مشاعرهم ، وأنستهم العداوة التقليدية بين الشعبين ولو إلى حين ، وزاد فى الحماسة لليابان نصرها السريع الحاسم على روسيا عام ١٩٠٥ ، الذى روج لفكرة آسيا للاسيويين ، وزاد فى عاطفة المقت ضد الغربيين . .

وفى سنة ١٩١١ قامت الثورة فى بكين لدك عرش أسرة مانشو ، وإنشاء الجمهورية الصينية . فابحر شيانج الى بلاده للقيام بواجبه . . ومن هناك أرسل السيف والبذلة اليابانيتين فى طرد بالبريد إلى قيادته التى تركها ، مع أخلص تحياته !

وظل يحارب فى معارك صغيرة خمسة اعوام ، وكانت صلته بالدكتور « صن » تزداد مع الزمن توثقا ، ولاسيما بعد أن تمكن مع جنده من انقاذ حياة زعيمه التى تعرضت لخطر محقق .

ولا ندرى ما الذى حدث على وجه التحديد من تطورات فى نفس الثائر الشاب ، الذى نراه يخلع زيه العسكرى فجأة ، ويهجر الجندية التى شغف بها ، ويعمل كاتبا فى متجر !

هذا تبدل عجيب من غير شك . ولكن شيانج كان لديه منطقه الذى اقنع به نفسه . فقد قرر أن يشتغل بالسياسة ، ولا سياسة لمن لا مال له : فاعتزم أن يخوض ميدان الأعمال الحرة عسى أن يصبح من أصحاب الثراء .

ولم يلبث عمله فى التجارة أن لفت له نظر كبار التجار ، فحاز ثقتهم، وبدأ يكون لنفسه ثروة خاصة ، ولكن فى حدود الضيقة ...

ويرفع الستار عن عام ١٩٢١ ، فاذا هو عضو فى جمعية سرية ، تعمل فى الحرب والسياسة معا .. لقدعاد ثائرا مرة أخرى .

وكان الدكتور صن ينتدبه فى المهام الدقيقة والهامة . ومنها مهمته فى موسكو . وهناك رأى تروتسكى ، وسمع منه ، وتحدث إليه . ومما قاله الزعيم الشيوعى الكبير (فى زمنه) : الصبر والنشاط هما أهم العوامل فى نجاح حزب ثورى . وكل منهما يكمل الآخر . وطالت إقامته بين البلشفيك ٦ أشهر .

ولم يلبث أن صعد نجمه فى حزب الكومنتانج على عجل . ولما مات الدكتور صن ، انتخب شيانج قائدا عاما للجيش الوطنى .

وفى كتاب « الصين الفتاة » وصف لمقابلة أحد الصحفيين الأجانب لهذا الشاب الذى أصبح قائدا عاما .. قال الصحفى :

ذهبت إلى كانتون لمقابلته ، وهنــاك أمام بيت صغير من طابقين ، وجدت فتى يحرس الباب . فدفعت إليه بطاقتى ، وتأمل فيهما برهة ، ثم تنحى عن الباب وأشار إلى السلالم ، فصعدت . ووجدت فى الردهة شابا يلبس ملابس الضباط فقلت له بالانجليزية :

ــ أين شيانج كاى ــ شيك . فقال الشاب :

ــ نعم ! شيانج كاى ــ شيك !! فقلت موضحا :

ــ أين .. أين شيانج كاى ــ شيك .

فأشار الضابط إلى غرفة نوم متواضعة ، فذهبت إليها ، وجلست . و بعد قليل جاءنى شاب من أبناء الجامعات ، وقال لى ان الذى كنت تخاطبه هو القائد العام بنفسه . وهــذه غرفة نومه ، وهى أيضا غرفة عمله .

وفى هذه المقابلة ــ وكانت عام ١٩٢٦ ــ قال القائد الشاب إنه سوف يهزم الفوضى ، ويوحد الصين .. و بدا هــذا الــكلام حديث خرافة وأوهام حالم . وأضاف القائد إنه أيضا سيطلق الصين من عقال الامتيازات الأجنبية .. فــكان هــذا فوق ما يتصور إنسان . ومن الغريب أنه قال فى ذلك الوقت أنه سيفعل ذلك فى عامين أو ثلاثة ...

ولم يوص الدكتور صن منشىء الحزب الوطنى ، بأن يكون شيانج خليفتــه . ولـكنه أشار بأن يكون قائد الجيش الوطنى ، وأن يرأس وانج شينج ـ وى أحـد زعماء اليسرة الوطنيين ، الحزب من الناحية السياسية .

ولم يلبث شيانج بمهارته أن زحزح وانج عن مكانه ، وأصبحت له الصدارة فى الحرب والسياسة .

وكان الوقت ثمينا . ففى نفس هذه السنة ١٩٢٦ قرر شيانج البدء فى تنفيذ خطته .

— ٤ —

اعلان الحرب على الحرب

هذا عمل عظيم لا نظير له فى التاريخ .. ولم يسبق أن حاوله ، أو فكر فيه انسان .. وهو أن يعلن فرد واحد الحرب على نصف مليار لكى يجمعهم تحت لواء واحد ، وقد مزقتهم الفرقة ، وأنهكتهم الخصومة ، و بددتهم مطامع المغامرين .

حقيقة نعلم فى التاريخ أن عظيما من عظماء الدنيا هو أبو بكر الصديق شن الحرب بحفنة قليلة من الجند على العرب جميعا ، لكى يجمعهم تحت لواء واحد . ولكن لم يكن يسكن الجزيرة غير ثلاثة ملايين أو أربعة .

ولم يكن نفوذ الحزب الذى يقود شيانج قواته منبسطا فى الصين كلها .. لا بل كان منحصرا فى الجنوب ، وكان الشمال ، وكل مكان آخر منتهبا بأيدى تجار الحرب . وانتهز مهربو الأسلحة،

وتجار المغانم من مصائب الشعوب ، الفرصة لكى يغذوا كل معسكر صينى بحاجته .

ولا سبيل إلى أن نشبه هذه الحرب بحرب تحرير العبيد فى الولايات المتحدة . ولا بالحرب الأهلية فى اسبانيا . فهاتان حربان دعت إليهما المبادىء أومصالح الأحزاب . وأما فى الصين ، فهى حرب ضد الحرب ودعاتها .

وكان أكثر الناس تفاؤلا ، لا يشك فى أن نجاح شيانج فى اجتياح الصين ، سيتطلب منه سنوات عمره ، ومثله معه .. ولكن المتتبعين لسير الحياة فى هذا القسم الكبير من الشرق ، ذهلوا عند ما توالت الأنباء ..

ففى سنة ١٩٢٦ احتل ووشانج .

وفى سنة ١٩٢٧ احتل هانج شو .

وفى سنة ١٩٢٧ احتل شنجهاى ونانكين .

وفى سنة ١٩٢٨ احتل بكين .

وهكذا صنع شيانج قطعة من التاريخ الحديث .. جمع قارة فى أمة . فإلى كم من الزمن سيدوم ما صنع ؟

— ٥ —

الحمر والصفر

كان ثالث مبادئ الدكتور صن التى ذكرناها ، المساواة الاجتماعيــة بين ابناء الأمة ، ومن هـذا المبدأ بدأ الشيوعيون يوجدون لأنفسهم ثغرة ، ويفسرون هذا الاتجاه من الزعيم الأول بأنه ميسرة حمراء ، من النوع الذى عرفته موسكو . ولا سيما أنه كان من مستشارى حزب الكومنتانج ـ بورودين ، و بلوخر .

ولم يكن كذلك الجنرال شيانج . فقد كان أميل إلى الميمنة ، و إلى إقرار النظام الاجتماعى على حريه الاختيار والتملك والعمل .. فالصين فى روحها وتقاليـدها وما يصلح حاضرها ومستقبلها لن تقر التشيع .

و إذن فقد وجدت الثغرة ، و إذن فقد تلون الحزب بلونين أصفر وطنى على رأسه القـائد العام ، وأحمر شيوعى على رأسه كثيرون .

وكان الشيوعيون يدورون حول المبدأ الثالث ، وراحوا يقولون إن شيانج ابن الثورة ، خان الثورة ، وخرج على مبادئها ، وأنكر أصدقاءه ، وتنكر لذكرى زعيمه .

ولم يتردد شيانج . ولم يقف طويلا عند هذه العقبات يتهيبها ، ويسمح للفتنة بأن تنمو حتى يتسع فاها لابتلاعه . بل قرر أن يضرب ، و بكل شدة ، وفى كل مكان . و ينسى كل شىء إلا الصين ، ومصلحتها العليا كما رسمها لنفسه .

ولم يلبث شيانج أن وجد مركزه حرجا ، وهو يشرع فى حركته الجديدة . فهو فى حاجة ملحة إلى المال . والمال فى يد الأجانب الذين أعلن أنه ضدهم ، وضد تحكمهم فى اقتصاديات بلاده . ورأى نفسه فى الطريق إلى شنجهاى ، ولم يلبث أن التقى بكبار الماليين فيها الذين كانوا يخشون أعظم الخشية من الصين الحمراء التى قد تأكل أخضرهم ويابسهم . فعرضوا عليه أموالهم . فقبلها ، لأن غايته اتحدت مع غايتهم . فاذا فرغ من تطهير بلاده من الخطر الأحمر ، فلينظر بعد هذا فى الخطر الأبيض .

وكما وافق اتجاهه الجديد هوى لدى الأجانب ، كذلك طابق خطة اليابان فى شرق آسيا ، التى كانت تحارب الشيوعية والتشيع

حربا لا هوادة فيها . ولا سيما أن طوكيو كانت أعلنت أنها تنوى « انقاذ » الصين من البلشفيك .

وفى هذه القارعة الجديدة ضد أعوان روسيا ، راح يجرب قبضته ، ويكر فى كل مكان ، ويتلقى جنوده تدريبا عاليا ، وينالون انتصارات كانت سهلة فى معظم الأوقات .

وهكذا كان الشيوعيون فى الصين ، شيئا قريبا من اليهود فى الدول الديكتاتورية ؟

وراح الصينيون الحمر يفرون من هنا ، ويتراجعون من هناك ، حتى تأتى لهم التجمع فى مقاطعة كيانجستى ، وأنشأوا فيها أول نظام سوفياتى فى الصين .

واستمرت هذه المطاردة عشر سنين طويلة دون أن يتمكن شيانج من استئصال شأفة الشيوعيين . ذلك لأن روسيا كانت وراءهم ، تمدهم بكل معونة لازمة .

وفى خلال هذا الكفاح المرير ، الذى حاول شيانج أن يرتق فيه فتوقا فيظهر غيرها ، كانت جبهته الداخلية ـ أى حزبه الكومنتانج ـ غير مستقرة . فكثيرا ما استقال من الرياسة والقيادة ، وكثيرا ما أعيد انتخابه وفى كل مرة كان يستحوذ على سلطات أوسع .

وقد تمكن شيانج من بسط سلطانه على ٢٢ مقاطعة . وهى مساحة

لم تدن بالطاعة لقائد قبله .. والطاعة هنا تعنى دفع الضرائب .. لا أكثر .

وكان دائم الحركة جم النشاط ، استخدم الطائرة فى كثير من تنقلاته ، حتى طاف بها معظم الصين ، ومكنته من أن يرى غرب الصين ، وتراه . وكانت رحلاته تقابل بحماسة وحرارة فى كل مكان

ولم يهمل شيانج فى هذه الفترة الإدارة المدنية التى رغب فى أن ينظمها حسب القواعد الحديثة .

فاستعان بالبرفسور كمرر ، والسير فردريك روث لتنظيم العملة — وهى أعظم مشاكل الصين — كما شرع فى إجراء انقلاب اجتماعى فى بلاده قادته زوجته . ومن خلال المحن والكدح المتصل نشأ جيش الصين الوطنى الأول ، الذى نظم على طراز لم تشهده هذه البلاد من قبل .

وبعد هذا كله أو قبله ، ظهر فى الصين الشعور الوطنى ، والاحساس بالمكان السياسى لهذه البلاد فى المجموعة الدولية ...

ترى هل كان هذا نجاحا أم لا ؟

لقد أجابت اليابان على هذا السؤال بالعمل لا بالكلام .. فقد قررت أن المارشال قارب أن يوحد الصين وأن يضع قدمها على سلم الرقى ، فقررت أن تنشط ، وأن تسرع بهدم هذه الحركة ، قبل أن يفوتها القطار .

من هو ؟

كتب المارشال شيانج كاى ـ شيك إلى زوجته رسالة يقول لها فيها :

« لقد وطدت العزم على أن أموت شهيدا فى سبيل »
« بلادى إن احتاجت بلادى إلى استشهادى . ولن أسمح »
« لنفسى مطلقا أن أقدم على عمل يشعرنى بالخجل من »
« زوجتى ، أو لا يجعلنى جديرا بانتسابى للدكتور »
« صن يات ــ سن » .

— ١ —

الرجل

المارشال شيانج كاى ـ شيك ، رجل طويل القامة ، قصير الساقين ؛ يبلغ طوله خمسة أقدام وتسع بوصات ، ولذا يفضل فى صوره أن يرسم جالسا ، أو مرتديا معطفه العسكرى .

دقيق الملامح ، معتدل القامة ، نحيف البدن ، يزن ١٤١ رطلا . يلبس الزى العسكرى فى معظم الأوقات ، ويفضله على ما عداه . وله عينان نفاذتان ، عميقتان ، لا يقر لهما قرار .

يستيقظ مع الفجر ، ولا يكف عن العمل حتى الليل . وأحسن ساعات النهار عنده ، التى ما بين الفجر وتناول الإفطار . ويحب أن ينام قليلا بعد الغداء ، وهو يصغى إلى همهمة ضعيفة من موسيقا شوبير . وعندما يكف الجرامافون عن العمل ، يعرف أصدقاؤه فى الغرفة المجاورة أنه نام .

وبعد الظهر يتناول الشاى ، ثم يخلو إلى نفسه نصف ساعة للعبادة أو التأمل .

لا يشرب الخمر ، ولا يدخن ، ولا يشرب القهوة ولا الشاى . ويتناول طعامه على الطريقتين الأوربية والصينية . والأصناف عنده سواء .

وحبب إليـه فى دنياه ثلاث : الشعر ، والجبال ، وزوجته . وأحسن اوقات فراغه [إذا كان عنده فراغ وهذا نادر] أن يسير بين التلال فى يوم مشمس ، أو يتناول طعامه فى مكان خاوى . وإذا سار فى نزهاته أخذ ينشد الشعر الذى يحفظه .

وسنتحدث عن زوجته بعد حين . وأقرب الناس إليه بعدها صديقه المستر دونالد الصحفى الاسترالى ، الذى ظل مستشاره وصفيه لسنوات طويلة . ومن أصدقائه الأجانب المقربين جداً له الدكتور جورج شبرد ، أحد رجال الإرساليات الدينية الأمريكية .

وشبرد أحد الذين يستطيعون مصارحة المارشال بكل شىء . وقد قال له مرة وهو يؤنبه : إن جنوده فى كيانجسى ، يعاملون الفلاحين بغلظة تفوق معاملة الشيوعيين الحمر لهم . وقد ترتب على هذه المصارحة أن ازدادت صلة الرجلين توثقا .

وهو يحب الوحدة . ولا يميل إلى حضور الحفلات العامة والظهور أمام الجموع . وفى أثناء طوافه بالبلاد كان يقيم مأدبة يدعو لها الرجال الرسميين ، ثم يستغنى عن مقابلتهم بعد هذه المأدبة .

وعلى أثر أحد الانتصارات الكبيرة تجمعت حول بابه حشود كثيفة من الشعب تهلل وتهتف . ورغب جداً فى ألا يظهر لهم ، وأن يكلف البوليس بإعادتهم إلى بيوتهم ، لولا إلحاح مستشاريه عليه فى أن يظهر لهم .

وفى المقابلات الرسمية ، تبدأ مدام شيانج باستقبال الزائر ، وعندما يقدم الشاى يقبل المارشال . ولا تزيد المقابلة عن نصف ساعة ، وإذا كانت لها بقية تستأنفها سيدة الصين الأولى .

وربما كان يعرف بعض الإنجليزية ، إلا أن زوجته تقوم بالترجمة بينه وبين زائريه الأجانب . ولا تكاد تشعر أن بينك وبين المارشال مترجم ، لأن « السيدة » وهذا هو اسمها فى الصين ، تتحدث كأنما تقرأ أفكار زوجها وتعلم ردوده سلفا .

ولا يحب المارشال إضاعة الوقت . فعندما زاره جون جنتر قال له المارشال : أحب أن تشرح لى الموقف السياسى فى أوربا فى جملة أو جملتين . وكانت هديته لزائره أن أسئلته ترجمت إلى الصينية وكتبت ، ووقع عليها المارشال ! !

ويذاع عن المارشال أنه يحيط نفسه بحرس قوى ، وأن سمك زجاج سيارته بوصة ، حتى لا يخترقه الرصاص . ولكن هذا الكاتب الذى زاره كذب ما كان يروى ، وقال إنه سار قاصدا



المدام
السيدة الأولى فى الصين

بيت الدكتور كونج رئيس الوزارة ، ولمح فى الطريق المارشال شيانج ، يسير قاصدا نفس البيت ، ولا يكاد أحد يتنبه له والجرس من بعده بنحو ٢٠ مترا . وقد رأى المارشال الزائر الأجنبى قبل أن يراه ، فحياه وسار فى سبيله .

وكان رئيس حرس المارشال عام ١٩٣٩ ضابطا ألمانيا له قصة طريفة مؤداها أنه قام بثورة ضد جوبلز ، فسجن ، ثم خرج من بلاده إلى الصين . ولثقة شيانج به ولاه رياسة حرسه الخاص . وقائد طائرته أمريكى . والطائرة أهم أداة للانتقال ، لاتساع مساحة الصين الهائل ، والمارشال يعتمد عليها كثيرا فى رحلاته ، ويغرم بالطيران جداً .

وقد ذكرنا اسم المارشال الذى يعرفه به العالم . ولكنه دعا نفسه باسم آخر عندما ارتفع نجمه واستطارت شهرته ، اتباعا لتقليد صينى محترم . فاسمه الرسمى « شيانج شونج - شنج » ، Chiang Chung - Cheng ، والمقطعين الأخيرين من صفات المدح التى تدل على الإستقامة والاعتدال . وبهذا الاسم الأخير يوقع أوراق الحكومة ، وكذلك يذكر فى الكتب الصينية .

وتناديه زوجته باسمه البسيط « كاى » .

وتولى شيانج رياسة الوزارة مرارا ، ولو أنه الآن ليس

رئيس الوزارة . وتولى أيضا رياسة الجمهورية . . إلا أنه لم يعلق كثيرا على هذه المناصب لأنه لا يزال يرى مهمته التى بدأها لم تتم بعد . . وهى مهمة عسكرية فى صلبها وتفاصيلها . فهو القائد الأعلى للقوات الصينية . وهو أيضا رئيس حزب الكومنتانج ، وقد انتخب للرياسة فى مارس سنة ١٩٣٨ ، وبذا جلس رسميا على الكرسى الذى أنشأه معلم الصين الأكبر الدكتور « صن يات ـ سن » . وهكذا جمع شيانج فى يده السلطات الثلاث : الحكومة والحزب والجيش .

وقد يكون ستالين أوسع منه سلطانا ، وأقوى نفوذا . إلا أن الرئيس كالينين لا يزال رئيس الجمهورية السوفياتية . وستالين لم يزد على أن يكون رئيس الوزارة ، ووزير الدفاع . وقد تولى هذه المناصب فى أثناء الحرب الحاضرة . . أما قبل الآن فلم يزد على أن كان سكرتير الحزب السوفياتى !

وكما أن الحزب فى روسيا هو الحكومة ، كذلك فى الصين . . حزب الكومنتانج هو أيضا الحكومة ، أو على الأصح منه وإليه مرجع الحكم .

ويحب المارشال القراءة ، فهى هوايته المحببة ، وأكثر

قراءاته فى أدب الصين القديم وحكمتها . وأكثر ما يعجب به من هذا القديم قول كونفشيوس :

« إذا أراد الإنسان أن يضمن الفضيلة للعالم ، فعليه
« أولا أن يحكم أمته .
« ولكى يحكم أمته ، لا بد له قبل هذا من أن يحكم
« أسرته .
« ولكى يحكم أسرته لا بد أولا من أن يقوى بدنه
« بالرياضة النفسية .
« ولكى يقوى بدنه لا بد له من أن يقوى عقله .
« ولكى يقوى عقله لا بد قبل هذا من أن يخلص
« فى النوايا .
« ولكى يخلص فى نواياه لا بد من أن يزيد المرء
« فى علمه » .

وهو رجل عسكرى ، خاض حربا ضد أمراء الحرب ، وضد الشيوعية ، وضد اليابان منذ عشرين سنة إلا سنة ، لم يهدأ ، ولم يفتر ، ولم تلن له قناة . وقد خاض رمسيس والإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون ومحمد على حروبا كثيرة استمرت

أزماناً ، ولكنها كانت معارك متقطعة تخللتها هدنة وراحة معتدلة . إلا أن صاحبنا لبس ثوبه العسكرى وحمل سلاحه على عاتقه وانطلق من ذلك اليوم البعيد الذى تولى فيه قيادة جيوش الشعب . ولا يزال منطلقا حتى كتابة هذه السطور ! !

وقد علمته هذه الحياة العسكرية ، وكثرة الظروف السيئة التى أحاطت به أن يكون قاسياً ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا . فقد أدان الشيوعيين وذبحهم ذبح الماشية . وعلمه هذا الدور العنيف الدامى الذى يقوم به كيف يكون حذرا ، خشنا ، كثير الحساب . وإن قوة شكيمته ، وشجاعته الفائقة ، لما يضرب بهما المثل .

ولقد أثبت فى أكثر من موقف أنه لا يهاب الموت ولا يخشاه .

وعلى الرغم من شدته مع أعدائه ومعارضيه ، فهو لا يتردد فى الاستفادة من العناصر الصالحة التى يلمح فيها بادرة خير . فهو يتغاضى ، ويتسامح . ولكنه لا ينسى .

ومثله فى هذا مثل الملك ابن السعود ، الذى شيد ملكه بذراعه ، وانتزع النصر من أنياب أعداء كثيرين . فلما استتب له الأمر ،

وظفر بكل الذين كانوا ضده ، عفا عنهم ، وألحقهم بحاشيته ، ولكنه وضع عينه عليهم . . وما يزال أمره كذلك .

وهو رجل صبور ، قوى الأعصاب إلى حد عجيب .

فقد كان يشن حربا ضد الشيوعية ، و بدأت اليابان تتحرك ، وهو يظهر أنه لا يكترث لها . .

سقطت منشوريا

وسقطت جيهول

وسقطت الصين الشمالية

وحاق الخطر بمنجوليا

كل هذا حدث ، وقائد الجيش الوطنى دائب على محاسنة اليابانيين ومطاردة الشيوعيين . وظن الناس به الظنون فى الصين وفى الخارج . وحسبوه عاملا من عمال اليابان ، ونصيراً لمطامعها ضد الروس ، على حساب وطنه .

وزادت الإشاعات وقويت ، وتحرجت الأمور إلى أقصى حد . ولم يلبث الأمر أن تبدل فجأة ، والتفت المارشال صوب اليابان ، وأعلن عليها حربه الوطنية الكبرى . . .

وظهر من سياسته أنه كان يريد أولا أن يحمى ظهره ، ويمكن لنفسه ، و يدرب الجيش . لأنه كان على ثقة ألا قبل له بمواجهة

اليابان . وكان يعلم أنه سيقضى على قوته كلها فى حرب خاسرة ، صبر . . ولكن صبر من تجرى فى بدنه عمليات جراحية تستأصل وتنزف الدماء .

وظهر أنه كان يلقى محاضرات على ضباطه الكبار فى عام ١٩٣٤ ، وكانت هذه المحاضرات سرا لا يذاع . فلما أعلن الحرب على اليابان، بعد ثلاث سنين طبعت هذه المحاضرات ، فإذا هى كلها استعداد وتوجيه للحرب ضد اليابان . .

وهكذا احتمل شيانج حملة الشك ، وترويج الإشاعات ، وسوء السمعة فى كل مكان . لأنه أراد أن يختار هو الوقت الذى يعمل فيه ، والعدة التى يعمل بها . ولم يترك ذلك للناس ، ولأحلاس القهاوى والجالسين فى الأركان الدافئة بالمنتديات أو البيوت . . ذلك أنه هو الذى يعمل لا هم . وهو يعرف من سر عمله ما لا يعرفه غيره فى الخارج .

وهذه صورة تتكرر فى التاريخ وفى حياة الرجال العاملين كثيرا . و بقدر ماتكون أعصاب هؤلاء القادة قوية ، لاتستجيب لإغراء الشهرة السريع ، ولا تهاب النقد السطحى المبتسر ، بقدر ما يقدر لها من توفيق ونجاح . .

وهذا هو دائما الفرق بين من يصنعون التاريخ ، ومن يعلقون على هامش هذا التاريخ ! !

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ذكر كلمة أخيرة عن شيانج الرجل ، وهى ميله إلى المرح والدعابة . .

فهو رجل صارم جاد . لا يستجيب لدواعى الضحك كثيرا . ولكنه مع هذا قد يضحك فى أشد الأوقات حرجا . حدث مرة أن أظلمت الدنيا فى وجهه وهو فى « سيان » [وسنعود إلى هذا الاسم قريبا] وكان معه الصحفى الاسترالى دونالد . فسأل صاحبه عن أحسن ما يعمل ، فأخرج دونالد من جيبه صندوق الورق ودعاه إلى مباراة . فضج المارشال بضحك متصل .

ومرة كان يركب مع دونالد فى أحد الطرق بشكيانج . ولاحظ الصحفى أن أحداً ما رفع من الطريق العلامات المكتوبة باللغة الإنجليزية ، التى يسترشد بها السائقون الأجانب مثله ، فصاح :

— يا للسماء ! أى مجنون هذا الذى أمر بنزع علامات الطريق المكتوبة بالإنجليزية ! !

فضحك المارشال ضحكا عاليا من انفعال صديقه . . لأنه هو

— أى شيانج — الذى أمر برفع العلامات ! !

— ٢ —

الثروة والأسرة

يتقاضى المارشال شيانج مرتبا شهريا قدره ١٠٠٠ ريال صينى أو ما يقرب من ٣٥ جنيها مصريا . ولا يظن أن له دخلا كبيرا من ثروته الخاصة التى جمعها فى شبابه من اشتغاله بالتجارة كما ذكرنا

أما أسرة « سونج » التى تزوج منها المارشال ، فهى من أغنى الأسر فى الصين . ومع هذا فما أقل حاجة هذا الحاكم المجاهد إلى المال ، لأنه ليس لدى الزوجين وقت ينفقان فيه المال .

وكانت الحكومة الصينية قد بنت لرئيس الدولة مقرا فى نانكين ، ولكن المارشال — مدة مقامه هناك ، آثر على هذا البيت الرسمى الكبير مسكنا صغيرا استعاره من الأكاديمية الحربية .

ولا يحب الصينيون عامة التفاخر بالثروة ، والاستعلاء على الناس عن طريقها . وقد ذكرنا أنه لا طبقات فى الصين ، مثلهم

في هــذا مثل العرب . ولــكن يجب على الحاكم الصينى أن يشعر أتباعه ــ وعلى الأخص الجيش ــ ان خزائنــه عامرة ، حتى يطمئنوا جميعا على دفع مرتباتهم . وكثيرا ما هجر جيش أحــد القواد إلى القائد الذى ينافسه أو يعاديه ، لأن ثروة الجديد أضخم من القديم .. أو هكذا يظنون .

ومن النفقات الهامة فى ميزانيــة المارشال ، اجر الجراح . فكل جندى يصاب بجرح يتناول ١٠ ريالات صينية . وكل ضابط يتقاضى مقــابل الجرح من ٣٠ إلى ٥٠ ريالا . أما القائد فثمن جرحه ١٠٠ ريال .

●●●

عنــدما بلغ شيانج الخامسة عشرة من عمره ــ أى فى فجر حياته ــ تزوج إحــدى بنات جيرانه ، بناء على طلب أسرته . ولــكن فى سنة ١٩٢١ طلق شيانج هــذه الزوجة لأن مستواها العلمى والاجتماعى لم يكن يؤهلها لأن تــكون السيدة الأولى فى حياة الرجل الذى يطمح لأن يكون الرجل الأول فى الصين .

و بعد قليل من هذا الطلاق ، رأى شيانج فتاة جميلة وضاءة هى « ماى ــ لينج سونج » فشغف بها شغفا عظيما ، وأخذ يلاحقها

بحبه فى كل مكان ، ملاحقة لا تعرف الكلل ولا الهوادة. وكانت هى لا تريده زوجا لها ، لسبب بسيط ، وهو أنه « لا يعجبها » !.

ولم تسترح أسرة الفتاة كثيرا لهذه الحالة القلقة بين الشاب المتدله العنيد ، و بين فتاتهم المتأبية .

و بعد ست سنوات من الحرب فى جبهتين : جبهة الوطن والكفاح ، وجبهة الآنسة ماى ـ لينج ، حدثت مفاجأة . فقد دعت مدام كونج الصحفيين إلى حفلة فى بيتها ، وأدهشهم أن رأوا المارشال شيانج هناك . وزادت دهشتهم عندما أعلنت مدام كونج أن أختها الصغيرة ماى لينج ستتزوج هذا القائد !!

وفى أول ديسمبر سنة ١٩٢٧ عقد الزواج ، ودعا شيانج للحفلة التى أقامها الف مدعو ، وأنفق عشرة آلاف جنيه فى هذه الليلة .

وخطب شيانج بعد الحفلة قائلا: هذا الزواج سيدفع ثورتنا الوطنية إلى الأمام دفعا عظيما ، لأنى أستطيع الآن أن أواجه المسؤوليات الجسيمة التى فوق عاتقى بعزيمة صادقة... فقد حل السلام فى قلبى!

ويعرف الصينيون ، بل يعرف الناس جميعا فى كل مكان ، ان حرارة الحب الأول الذى حمله المارشال لزوجه ، ماتزال متأججة حتى الآن على الرغم من مضى أربعة عشر عاما على حياتهما معا .

فهى جزء من حياته ، وهى عنده الصديق الذى لا يستغنى عنه ، والرفيق الذى لا تمل صحبته ، والمشير الذى تتقدس مشورته .

ولم يرزق الزوجان أولادا ..

ولكن المارشال رزق من زوجته الأولى ولدا ، هو شينج - كو . ولم تكن صلات الابن وأبيه طيبة . ففى الوقت الذى كان شيانج يحارب الشيوعيين فى بلاده بكل عنف ذهب هذا الابن إلى روسيا — امعانا فى التشيع — واشتغل مهندسا فى أحد مصانعها . ولم تتردد الصحف الروسية فى أن تستكتب الشاب مقالات يذم فيها أباه ويهاجم سياسته .

ولكن فى سنة ١٩٣٧ ، عندما تألفت الجبهة الوطنية ، وكفت الحرب ضد الشيوعية ، لمواجهة اليابانيين ، عاد شيانج - كو إلى بلاده ومعه زوجة روسية وطفل — هو الآن حفيد المارشال . وقد انتدب الأب ابنه ضابط اتصال بينه وبين الجيش الصينى الشيوعى فى مقاطعة كيانجسى .

ويتبنى المارشال فتى آخر ، هو ابن أحد أعضاء حزب الكومنتانج ، كان أبوه قد أوصى الزعيم برعايته . وهذا الفتى يبلغ الآن السادسة والعشرين من عمره ، وكان قبيل إعلان الحرب فى جامعة برلين العسكرية يتلقى علومه فيها .

ولنقل بعد هذا كلمة عن سيدة الصين الأولى ، التي استطاعت شهرتها فى أنحاء العالم ، وعدت من عظيمات نساء هـذا العصر . وعندما رحلت إلى اميركا منـذ عامين دعاية لقضية وطنها ، هزت الاميركيين من الأعماق ، وأفادت بلادها فائدة لا تقدر بمال ولا توصف فى مقال ..

من هى هذه السيدة ؟

حدث فيما سلف من الزمن أن رحل إلى أميركا شاب اسمه شارلز جون سونج ، تجنس بالجنسية الاميركية ، وتعـلم فيها ، ثم وهب نفسه لنشر المسيحيـة ، فسافر إلى الصين ، واستقر فى شنجهاى . ومنذ أكثر من نصف قرن تزوج فتاة صينية اسمها « نى » ومنها أنجب بناته . وقبل أن يمضى الزوجان من هـذه الحياة ، قدر لهما أن يشهدا أى خلف تركاه فى هذه الدنيا .

أما كبرى بنات سونج التى ولدت عام ١٨٨٨ فقـد تزوجت الدكتور كونج رئيس وزارة الصين .

وأما التى تليهـا وقد ولدت عام ١٨٩٠ فاسمها شينج لينج ، وقد تزوجت أعظم رجال الصين الحديثـة ، وهو الدكتور صن يات — سن .

والفتاة الثالثة التى ولدت عام ١٨٩٨ ، فقد تزوجت زعيم الصين الآن ، المارشال شيانج كاى ــ شيك .

هؤلاء هن بنات سونج . أما أبناؤه الثلاثة فقد شاركو فى الحركة الصينية الوطنية .. ولكن حظ البنات كان عظيما . فقد حكمن الصين ، منذ ثلث قرن ، وما زلن يحكمنه .

●●●

وأي دور تلعبه هذه السيدة فى حياة بلادها ؟

هى أصغر أخواتها سنا . ولكن أختها زوجة الدكتور «صن» ، أجمل شكلا ، و إن تكن أكثرمنهن تغربا ، أى تمثيلا للمظهر الاميركى أو الأوربى ، لمقدرتها الفائقة على أن تكون سيدة مجتمع من الطراز الأول . فحديثها لبق ، وحركاتها رشيقة ، وصوتها موسيقى ، وزيها ينم على ذوق سليم .

وليس صحيحاً ما يقال عنها من أنها ديكتاتور الصين . وليس صحيحاً ما يقال من أنها امبراطورة الصين غير المتوجة . وليس صحيحاً أنها تدفع زوجها العظيم دفعاً فى كل طريق . ولكن الصواب أنها الشخصية الثانية فى الصين ، وزوجها فى المقام الأول . حقاً يستشيرها زوجها ولكن قراره فى جلى المسائل هو « القرار ».

إلا أنها صلته وفكره فى المسائل الخارجية ، لأنها لسانه الذى ينطق به . .

ولقد قالت لها إحدى زائراتها مرة :

— ما هو مصدر القوة عند زوجك فأجابت :

— إحساسه بواجبه نحو الشعب الصينى .

فضحكت السيدة وقالت وهى تشير لمدام شيانج :

— إنك أنت مصدر قوته .

وهنا فزعت سيدة الصين الأولى ، ونفت بلسانها وحركاتها هذه الفكرة المنكرة . وألحت على زائريها ألا يذيعوا هذه الفرية . فما للصين زعيم قوى متسيطر غير شيانج كاى ـ شيك . وما « مدام » إلا زوجته ...

ولكن هذا الإلحاح فى الانكار ـ رغم صحته ـ لم يمنع السيدة العظيمة ، من أن تقول عنده كانت تتحدث عند اختطاف زوجها لو كنت موجودة لما اختطفوه . . فهى تعلم دورها على حقيقته . ولكن الطبيعة الأصلية فى الخلق الصينى تحملها دائما على أن تكون التالية . . ولعلك لم تنس بعد أن سر النجاح أن تمشى على ذيل النمر دون أن يعضك النمر ! !

وما أكثر إعجاب السيدة بالبناء والتشييد . رأت أخيراً فى هونج كونج منشئات عظيمة فى الميناء ، فوقفت معجبة وقالت : كم كنت أتمنى أن يرى « شيانج » هذه المبانى .

وتنقص مدام شيانج المرونة السياسية . فهى تكره الشيوعيين وتجاهر بهذه الكراهة ، وتلح فيها الحاحا شديدا .

ولقد تعلمت فى فجر حياتها فى اميركا . ولذا ينسب لها البعض أنها لا تعرف الصين جيدا . ولكن هذا ادعاء باطل . فما تزال « الصينية » الصميمة تختفى وراء كل حركة وكل تفكير يصدر عنها .

وهى سريعة الخاطر ، محكمة العبارة إلى حد يدهش له الناس .

وقالت عن فهم الأجانب للصينيين أنهم يظنون أن الرجال فى الصين يلبسون « فساتين » والنساء يلبسن « بنطلونات »

وعندما كانت تتفاوض مع الذين اختطفوا زوجها لرد حريته له قال لها خاطفه : إن المارشال يسقلهم بلسان حاد . . فأجابت من فورها :

ـــ أجل لأنه يقسو دائماً على الذين يرجو منهم خيراً .

ومهماتها فى الصين عظيمة :

فهى رئيسة القوة الجوية هناك . وهى زعيمة الحركة النسائية والمشرفة على أعمال الوقاية السلبية . وعندما يغير اليابانيون من الجو على عاصمتها تخرج بنفسها فورا ، وفى أى ثوب ، لكى تضمد الجراح ، وتواسى المنكوبين ، معرضة نفسها لأقسى الأخطار

وما من رحلة قام بها زوجها إلا كانت معه .. ومرت واحدة تخلفت عنه لمرضها .. فاختطفه أعداؤه

ولها فى التعليم جهود عظيمة ، وعلى الأخص فى تيسير اللغة وتقريبها إلى الجميع . ومن مهامها الاشراف على حركة الحياة الجديدة فى الصين . التى تشبه جمعيات الشبان المسيحية فى الغرب ، والاسلامية فى الشرق . وتختصر هذه الجمعية تعليماتها فى كلمات قليلة ، ولكنها عظيمة التأثير . كأن تقول : لا تزاحم . احتفظ بترتيبك فى الصف . لا تبصق . النظافة تمنع المرض . تجنب الخمر والنساء (الزنا) والقمار .

وتعتقد « السيدة » أن أعظم حركة فى تاريخ الكومنتانج هى جمعيات الحياة الجديدة

ومدام شيانج شديدة الفهم لتبعاتها ، والتعلق بمسؤولياتها والصبر عليها صبرا لم يعرف بعد عن سيدة . فهى تقول :

زعيم الصين ورجلها الأول يلقي خطبة على ضباط جيشه

« ليس من اليسير أن تضع نبيذا جديدا فى زجاجات قديمة .
وأنا أحصل غالبا على ١ ٪ من نتائج المجهودات التى أبذلها . »

وفى تاريخنا المعاصر سيدتان اخريان ارتفعتا إلى أعلى مقام بين سيدات العالم هما ملكة انجلترا ، ومدام روزفلت ، فاذا أضفنا إليهما مدام « شيك » ، فقد حصلنا على قمة نضوج المرأة الحديثة ، وغاية ما وصلت إليه من رقى .

إلا أن هناك فوارق بين هؤلاء العظيمات الثلاث . أهمها أن الصين إذا فقدت سيدتها الأولى ، فلن تعثر على من يشغل مكانها الكبير بين قومها . أما السيدة الأولى فى اميركا ، وفى انجلترا ، فلهما نظائر . وإن كان دور الجميع يختلف .

فملكة الانجليز تقوم بدور اجتماعى عظيم تجلى فى هذه الحرب بقوة خارقة . فهى الأم الرحيمة والأخت الشفوقة لآلاف مؤلفة من الأطفال اليتامى والنساء الثكالى الذين تخلفهم المعارك . وهى فى زيها المحتشم ، ووجهها الهادىء ، ونشاطها المستمر ، واعبائها المضنية ، تزيد فى مكانة البيت المالك الانجليزى وترسخ قواعده .

أما سيدة البيت الأبيض الاميركى ، فهى زعيمة موقوتة للاميركان ، إلا أن خطبها ومحاضراتها ، ودعاياتها التى لاتفتر لزوجها ، تعطى صورة

قوية عن الحيـاة السريعة المندفعة التي ينطلق فيها الاميركيون .
هي أصدق ممثلة للروح الاميركية « الرجالية » لا النسائية ..

وشيء من هذا يقال عن مدام شيانج كاي ـ شيك ، التي قال عنها دونالد صديق زوجها أنها تفكر بعقل رجل . إلا أن اعباءها والأخطار التي تتعرض لها أوفر بكثير من كل ما تعرضت له سيدة في مثل مركزها في دولة من الدول ..

وفي هذه الأمم الثلاث الكبيرة سيدات يعتمد عليهن كيان المجتمع ، سواء كن ملكات أو زعيمات .

ولكننا ندهش إذ نرى هذه الظاهرة تقتصر على الصين وأميركا وانجلترا . أما الدول الديكتاتورية الخمس فليست لها سيدة أولى من النوع الذي ذكرناه فروسيا ، والمانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، واليابان ، تعتمد على رجل ليس بجواره سيدة ظاهرة الأثر في حياة قومها .

ترى هل اختلاف الديمقراطيات عن الديكتاتوريات في التكوين الاجتماعي هو الذي أوجد هذه الظاهرة ؟ !

لست أدري ، لأني لم أقتنع بعد أن المارشال شيانج كاي ـ شيك ليس دكتاتورا . ولكن بمعنى يختلف تماما عن معنى

الديكتاتوريات الأخرى .. فهو حقيقة يستمد نفوذه من حزب الكومنتانج ، ولكنه فى نفس الوقت يعتقد أنه وحده الذى يستطيع أن ينقذ الصين ، وينكبها العثرات ، ويخفف عنها الأحمال الثقال التى ترزح تحتها .

●●●

ولنعد إلى حياة المارشال الخاصة مرة أخرى .

ذكرنا قبل أن الآنسة ماى ـ لينج ، رفضت أن تتزوج القائد الشاب شيانج ، وكلما ازداد الحاحا ، ازدادت تمنعا . وقالت له مرة وهى تحاوره — كيف أرضى بك زوجا ، وأنا مسيحية مخلصة لدينى ، وأنت وثنى ! ان أنت دخلت فى المسيحية ، فقد يكون هناك مجال لكلام جديد يقال .

ولو كان شيانج ، شخصا آخر ، يحمل كل هذا الحب لفتاته ، لقبل هذا الشرط من فوره ، ولظفر بها بكلمة يقولها . ولا سيما أن الصينى العادى — من غير أتباع الأديان السماوية — لايكترث كثيرا لعقيدته ، لأنها فى جملتها مجموعة من القواعد الخلقية ، وبعض طقوس معقدة للتعبد فى الهياكل .

ولكن شيانج لم يكن فردا عاديا . وكان يريد أن ينتصر فى معركته الغرامية «من غير قيد أو شرط» . فأجاب صاحبته بقوله:

— يا آنسة . لو أنني قبلت المسيحية دينا ، لسقطت من نظرك ، ولما كنت جديرا بك . ولكني أعدك أني سأدرس هـذا الدين بعناية — ولكن بعد زواجنا ، فاذا أرضاني وأقنعني ، فسأعتنقه

وفكرت الفتاة في هذا الجواب مليا . فوجدته مليئا بالحكمة والسداد .. وجـدته جواب رجل جدير بالاكبار والاعجاب .. فتزوجته « دون قيد أو شرط »

وبر شيانج بوعده ، فدعى أحد رجال الارساليات التبشيرية ، وأخذ يدرس معه المسيحية . ولم يرض بها دينا ، إلا بعد تفكير استمر ثلاث سنوات . فلما اطمأن لها ، ذهب إلى الكنيسة في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٠ ووهب نفسه للمسيح ، وعمد حسب الطقوس المعتادة .

ولو أن هتلر مثلا دخل في اليهودية ، أو اعتنق رزفلت البوذية لكان هذا العمل حديث الدنيا كلها . أما شيانج ، فعلى العكس لم يثر أحد حول تغيير دينـه ضجة ، على الرغم من أنه كان من أكبر رجال الشرق يومذاك ، ولا اكترث أحد في الصين لهذا الحادث .

ويتعاون الآن مع المارشال الوثنيون والمسلمون والمسيحيون باخلاص تام ، لأن « الصين » نفسها تجمعهم .

ويحافظ زعيم الصين على طقوس دينه الجديد بعناية كبيرة .

فهو يصلى مع زوجه كل صباح ، ويتلو الدعوات قبل كل طعام ، ويحافظ على عطلة الأحد محافظة تامة . وكثيرا ما يقتبس عبارات الانجيل فى خطبه .

ولكن على الرغم من مسيحيته المخلصة ، لا يزال يؤثر الطيب الصالح من ديانته القديمة . فهو يقدس أرواح أجداده ، واستطاع أن يجمع بين عقيدة الجنة والنار فى المسيحية ، و بين عدم وجود الجنة والنار فى دين عبادة الأرواح . واما كيف يجمع بينهما .. فالمارشال وحده هو الذى يعلم ذلك !

● ● ●

ومن العادات الهامة التى يحافظ عليها زعيم الصين ، ورجلها الأول ، أنه يأمر صباح كل اثنين بعمل « طابور » لكبار ضباط جيشه بجوار مقره ، يبلغون عادة نحو ٦٠٠ ضابط ، وعندما يحضر القائد العام ، تعزف الموسيقى النشيد ، ثم يسود صمت عميق ، وتعرض صورة الدكتور « صن يات ـ سن » أبو النهضة الصينية الحديثة ، فيركع الجميع أمامها ثلاثا . ثم يقرأ المارشال جملة من تعاليم الزعيم الأول ، و بعد هذا يطلب من الحضور أن « يتأملوا » ثلاث دقائق ، على الطريقة الصينية . وهى لحظات صمت ، يركزون فيها أفكارهم فى موضوع ما . و بعد « التأمل » يلقى

المارشال خطبة أو محاضرة تستغرق نحو ساعة يستعرض فيها أخبار الحرب . و إذا طال الموضوع فقد يستغرق ساعتين .

وتتضمن خطبه نصائح هامة . كأن يقول مثلا : إنه لايجب أن نقتصر على تدريب الجنود الصالحين تدريبا عاليا لكى يكونوا ضباطا أكفاء ولكن أيضا ينبغى للضباط الأكفاء أن يدربوا لكى يكونوا جنودا صالحين .

وعندما تلقى الخطبة يظل الجميع وقوفا حتى الوزراء . ويختم المارشال الخطبة لا بقوله شكرا ، ولا مع السلامة ، ولا انصراف ولكن يقول : خلاص !

●●●

وهل يمكن أن نختم هذا الفصل دون أن نشير بإيجاز إلى المستر دونالد الصديق الأول للأسرة ، والأجنبى الأول الذى يحب الصين مثل أى صينى آخر ، بل أكثر ، والذى ثار مع الثائرين وخاطر مع المخاطرين ، وظل هذا دأبه ٣٥ سنة أو تزيد . ومع هذا فهو لا يعلم من اللغة الصينية إلا كلمتين : شكرا.. وسحقا !!.

وصلة المستر دونالد بالصين عجيبة . فقد ولد باستراليا سنة ١٨٧٥ ، ولما شب عمل فى إحدى الصحف الاسترالية . وذات يوم جاءته رسالة من هونج كونج ، بأن فى مكتب البريد تحت تصرفه

١٢٠ جنيها لكى يصفى بها أعماله ، ويسافر ليتسلم عملا جديدا ، بأجر أكبر ، فى جريدة بهذه المدينة الصينية . ودهش دونالد لهذا الخطاب المفاجىء . فهو لم يكن صحفيا مشهورا تقبل عليه العروض، والصين مكان بعيد جدا عن استراليا لا يعرفه فيه انسان ..

ووجد حقا ما ورد فى الرسالة أن باسمه فى البريد ١٢٠ جنيها، فسافر لمجرد الفضول ، ولمعرفة سر هذا العرض العجيب . ولم يكن حديث خرافة أن فى هونج كونج جريدة بالاسم الذى جاءه ، ولما دخل على محررها ، وقدم نفسه له قال المحرر :

ـ مرحبا . اجلس هناك . فهذا مكتبك ! فقال دونالد :

ـ ولكنى أريد أن أعرف لم دعوتنى .. ولم اخترتنى بالذات من بين صحفيي العالم ، فأجاب الرجل :

ـ السبب بسيط جدا . فقد كلفت بعض أصدقائى بالبحث عن صحفى لا يشرب الخمر . وكان ذلك من ٧ سنوات . وعز علينا جميعا أن نعثر على ضالتنا حتى علمنا ، واستوثقنا من أنك لا تسكر، فدعوتك للعمل .. وهذه ميزتك عندى . والآن تفضل وخذ مكتبك فى الغرفة اليمنى !

وخرج دونالد إلى الغرفة اليمنى ، ولم يعلم كم ساعة ظل فمه مفتوحا دهشة وعجبا .

ومنذ ذلك الوقت تبنت الصين هـذا الصحفى الشاب .. وقد عمل فى كل حركة صينية ، واستقر منذ خمس عشرة سنة فى خدمة المارشال الشاب ، «شانج سو ـ ليانج» ، وحضر حادث اختطاف المارشال الزعيم . و بهرته مدام شيانج بقدرتها ، وذكرته بصـلاته القديمة مع أسرة سونج (أسرتها) . فما أن عرضت عليه العمل معها ومع زوجها حتى قبـل .. وكان ذلك من عشر سنين . ومن هـذا الوقت وهو الصديق الأول لزعيم الصين . ولـكنه لا يشغل منصبارسميا،وإن كان دائما ثالث ثلاثة أحدهم شيانج كاى ـ شيك و يرفض أن يسمى مستشار الحـكومة . وكل وظيفته انه «صديق» الحكومة وصديق ربانها الأول .. و يندر ألا يتناول طعامه مع أسرة المارشال. وهم يطهون له الطعام على الطريقة الغربية، لأنه لا يأكل الطعام الصينى .

●●●

وأظن أن القراء ملوا الاشارات الـكثيرة الى حادث اختطاف المارشال شيانج كاى ـ شيك . فلنذكر تفصيل هذا الموضوع الهام.

٣

الأسير

تقع منشوريا — كما هو معروف — فى شمال الصين . وكان سيدها وسيد الصين الشمالية غير منازع مارشال من أمراء الحرب، انفجرت فى قطاره قنبلة فنسفتهما معا .. وكان ذلك عام ١٩٢٦ .

وكان ثلاثة من القواد مرشحين ليخلفوه ، أصغرهم ابن المارشال ، وما كان يؤمل أحد أن سيكون لهذا الشاب من الأمر شيء . إلا أن حزب الكومنتانج ، وقائد جيوشه ، كانوا يرجون أن يتمكن هذا الشاب من النجاح ، لأنه كان يميل إلى مبادىء الوطنيين بعكس أبيه ومنافسيه ، فقد كانت اليابان تعتمد عليهم فى بسط سلطانها .

وانتهت المنافسة بين الثلاثة بأسرع مما كان مقدرا لها . فقد حدث مرة أن دعا المارشال الشاب زميليه إلى الغداء ، وبعد أن تناولوا الطعام — وكان شهيا — أخذوا يتحدثون فى السياسة ،

ويرشفون أكواب القهوة .. وقبل أن يفرغوا من القهوة أصدر الشاب أمره ، وأتم تضييف صاحبيه بثلاث رصاصات أطلقت فى رأس كل منهما ..

ومنذ ذلك الوقت أصبح المارشال الشاب ، شانج سو ـ ليانج سيد الصين الشمالية غير منازع .

ويذكرون ، أنه قبل أن يقرر الشاب التخلص من منافسيه أخرج ريالا من جيبه ، وأخذ يقترع عليه : هل يقدم .. أو يحجم . وظل ساعات فى هذه الاستخارة ، حتى انتهى الأمر بالاقدام. ولما نجحت المؤامرة وضع هذا الريال ـ الذى قضى فى شأن كبيرين من كبراء الصين ـ فى صندوق ، وكان يعتز به .

وبعد عامين اجتاحت اليابان منشوريا ، وأرسلت لشانج كل متاعه إلا هذا الصندوق ، فقد غنمته ..

وقد منح المرشال الشاب ارملتى القتيلين هبة مالية سخية..هى ٢٠٠٠٠ جنيه لكل منهما تعويضا عن فقد زوجيهما.. فما أكرمه!

ونحن نقص هذا الحديث فى عام ١٩٤٤ ، ونروى حوادث مضى عليها ١٨ عاما ومن العسير أن يظل الشاب شابا بعد هذه السنين الطويلة . فهو الآن فى السادسة والاربعين . ولكن سنظل

نطلق عليه لقبه الأول ، فهذا اللقب على كل حال أخف فى النطق العربى بكثير من الاسم الصينى ..

وما أن تولى المارشال الشاب الحكم ، حتى رفع علم حزب الكومنتانج فى منشوريا ، مغلنا ولاءه للحركة الوطنية ، ومحققا حسن ظن الوطنيين فيه . ولما طرد اليابانيون حكومته من منشوريا ، باحتلال الإقليم كله، استولوا على قصره الفخم، وحولوه إلى بيت لاستيلاد الكلاب الحربية !

وقد كان القائد الشاب ، أكبر عون ، للمارشال شيانج كاى ـ شيك فى تسيير سياسة الكومنتانج . وفى كل أزمة كانت تواجه المارشال شيانج . كان صاحبنا يقف إلى جانبه ، ويأبى أن يعاون أى حكومة أخرى لا يكون فيها شيانج .

ولما سقطت جيهول عام ١٩٣٣ ، أعلن أنه هو الذى يتحمل مسؤولية هذه الهزيمة ، حتى لا يفقد زعيم الصين وجهه ، أمام حزبه ومواطنيه . وقد سافر إلى أوربا ، ملحقا بنفسه هذا العار ، مع أنه لم يكن مسؤولا عن هذه الهزيمة . بل كان من أكثر المعارضين لسياسة السكوت على اليابان ، بعكس سياسة المارشال شيانج كاى ـ شيك التى كانت ترمى إلى عدم التعرض لليابان حتى تتوحد الصين ، وتخلص من الوباء الشيوعى الذى أصابها .

فهذه رجولة لاشك فيها من هـذا الشاب العجيب الشأن ، الذى يعد من أكبر أغنياء الصين ، وربما يرجع بعض الفضل فى هذه المواقف المشرفة إلى صاحبه المستر دونالد ، الذى التحق بخدمته وكان له كأب . وأول ما عمـله معه أنه خلصه من وباء المخدرات بأن عالجه فى أحـد المستشفيات . وكان يدمن الأفيون ، فنصحه اليابانيون بأن يستبدل الأفيون بالهيروين ، ولـكن دونالد خلصه منهما معا ..

وأثناء رحـلة المارشال الشاب فى أوربا بصحبة دونالد علم أن جيشه الشمالى الشرقى أخـذ يثور ضد شيانج كاى ـ شيك فهرع دونالد إلى الصين ليوقف هذا التحول الخطير ، ولم يلبث صاحبه أن لحق به ، فهو لم يستطع المقام من غيره فى أوربا . وأخذ الرجال الثلاثة : القائدان الصينيان والصديق الاسترالى يعملون معا .

وفى سنة ١٩٣٦ كان مركز القوات المنشورية التى انسحبت أمام اليابانيين يقع فى شمال غرب الصين ، وكانت قيادتها للمارشال الشاب. وعلم القائد العام أن جيش الشيوعيين عسكر فى نقطة قريبة من هذا الجيش ، فأوفد القائد الشلب إلى « سيان » لكى يقضى على القوات الشيوعية .

وبعد حين شم المارشال شيانج رائحة غير مريحة من منطقة

« سيان » . فقد علم أن رجال جيشه يخالطون الشيوعيين ، وهم معهم على وئام . وأن المعركة التى أمر بهـا لم تبدأ بعد . وعلم أيضا أن القائد الشاب ، حسن الرأى فى جيش الشيوعيين ، وأنه يبادل قواده المودة !

ولم ينتظر شيانج بيانات أوفر ، فقرر أن يسافر إلى «سيان» ليرى ما هنالك . فركب طائرته. وكانت زوجه مريضة، فسافر إلى الشمال الغربى من غيرها، ووصل إلى هناك فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦.

وكان المستر دونالد صديق المارشال الشاب فى نانكين يشاهد قصة فى سينما . ولما خرج علم أن المدينة الكبيرة قلبت رأسا على عقب بحثا عنه . فأسرع إلى بيت مدام كونج زوجة رئيس الوزارة حيث وجد مدام شيانج كاى ـ شيك وعلم أن برقيات جاءت من سيان بأن القائد الشاب اختطف رئيسه ، المارشال شيانج كاى ـ شيك ..!!.. فسأل دونالد :

ـــ هل أنتم على ثقـة من ان « شانج » هو الذى اختطف المارشال ، وأنه لم تقم ثورة عسكرية هناك ؟

فأجيب بأن الأمر كما ذكر . فركب طائرته ، وذهب إلى سيان وقبل أن نصل مع دونالد نقص ما حدث ..

فعندما وصل المارشال ، وأخذ يبحث الموقف العسكرى لجيوشه

وجـد أن القواد وعلى رأسهم القائد الشاب ، يرفضون المضى فى هذه الحرب ضد الشيوعيين ، ويريدون توحيد الجهود ضد اليابان .

ومما قاله « شانج » لرئيسه :

ــ أنت أضعت حتى الآن سدس الصين ، ومع هذا لم تفكر فى حرب العدو الأصيـل . وما تزال كل جهودك متجهة إلى اصطياد الفلاحين وقتلهم .

واربد وجه شيانج كاى ـ شيك غضباً ، وراح يكيل اللوم والتجريح لمنتقدى هذه السياسة ، وكان عنيفاً إلى حد مثير .

ولما وصل دونالد ، واقترح على القائد الشاب أن يترك الجيش إن كانت خطة الكومنتانج لا ترضيه ، أجاب بأنه لن يترك الحرب حتى يحرر أرضاً لا يزال أبوه مدفوناً فيها وهى منشوريا ، ويطرد آخر يابانى من الصين .

ولما وصلت المناقشة إلى حد استحال معه الوصول إلى أى نتيجة قرر صاحبنا « شانج » العمل .

ففى الساعة الخامسة بعـد ظهر اليوم التالى ـ ١٢ ديسمبر ـ سمع شيانج كاى ـ شيك وهو يرتدى ملابسه ، طلقات نار خارج مسكنه ، واندفع أحد رجال حرسه إلى غرفته يقول إن الجنـد

تمردوا . فقفز المارشال من باب خلفي الى الأرض ، قاصداً الهرب الى الجبال . وأصيب فى أثناء سقوطه برضوض فى ظهره .

وكان حرسه فى الخارج قد أحيط به ، وقتل بعض رجاله . وبعد قليل عرف مكان المرشال ، وكان الذى رآه الكابتن سن ، الذى تقدم ساجداً أمامه ، وهو ينتحب ، وطلب من قائده الأعلى أن يسلم نفسه . فقال المارشال :

ـــ اصمتوا أيها الخونة . إذا أردتم قتلى فعجلوا . .

ولم يتمكن شيانج من السيرلشدة إصابته من سقوطه، فحمل إلى السجن على محفة

ثم بدئت المفاوضات مرة أخرى بينه و بين شانج... المفاوضات بين الآسر والأسير !!

قال القائد الشاب :

ـــ إذا قبلت ياصاحب السعادة مقترحاتى فانى أطيع أوامرك

فأجاب شيانج :

ـــ إما أنك من أعوانى و إما أنك من أعدائى . فاذا كنت صديقاً فنفذ الأوامر بغير مناقشة . و إذا كنت عدواً فلتقتلنى بدون مناقشة ، وعليك أن تختار ، ولن أسمع لك بعد الآن .

وفى مناقشة تالية قال شانج للأسير العظيم :

ـــ إنى أعلم أنك أعظم رجل فى هذا العصر . ولكن لماذا

لا تلين قليلا ، وتصغى إلى رجائنا ، وتقودنا فى هذه الثورة المقبلة فهذا أكثر فائدة من أن تضحى بحياتك .

فأجاب شيانج كاى ـ شيك :

ـــ إن ثباتى على موقفى ، وتضحيتى بحياتى ، أجدى علىّ من تغيير مبادئى . فانى قادر على أن أحتفظ بكرامتى حتى الممات ، ولكن روحى ستعيش الى الأبد .

وعند ما تقدم شانج بمقترحات مكتوبة ، تحول المارشال الى قطعة من الصخر ، لا يقول ، ولا يسمع ، ولا يأكل ، ولا يشرب وأدار وجهه صوب الحائط . فقد كان الأمر أجلّ بكثير من كل ما تصور .

وكانت هذه المقترحات فى ثمانى نقط :

١ ـــ إعادة تنظيم الحكومة الوطنية .

٢ ـــ انهاء الحرب الأهلية ، و بدء الحرب ضد اليابان .

٣ ـــ الافراج عن الزعماء المعتقلين حديثاً فى شنجهاى .

٤ ـــ العفو عن جميع المسجونين السياسيين .

٥ ـــ ضمان حرية الاجتماع .

٦ ـــ إعطاء الحرية للشعب لكى يعبر عن عواطفه الوطنية

٧ ـــ تنفيذ وصية الدكتور صن يات ـ سن .

٨ — الدعوة فوراً الى مؤتمر ليقرر إنقاذ الوطن .

وكان الشيوعيون من وراء القائد الشاب . وهم الذين وضعوا هذه المقترحات .

وفى هذه الفترة كان دونالد قد وصل بعد أن عاقت العواصف طائرته فى الطريق . ولما دخل على الأسير ، وجده ملقى فى غرفة باردة ، وهو صامت . فلما تبينه شيانج دهش لمرآه ، فما كان يقدر أن سيسمح لأحد بالحضور من نانكين لرؤيته . وفاضت عواطف المارشال وتحدر الدمع من عينيه ، على وجه صلب كتمثال بوذا

وكانت خطة دونالد ترمى إلى فصل القائد الشاب عن أعوانه الشيوعيين وغير الشيوعيين والسفر به، و بالمارشال، الى نانكين .

ولم تكن مهمة الاسترالى العجوز هينة . ذلك لأن للمارشال قد يقتل نفسه « لأنه فقد وجهه » وتمرد أعوانه عليه ألحق به العار . ولم تكن فلسفة دونالد مقبولة فى الصين ، بلد الكرامة وحفظ السمعة . وهذه الفلسفة تقول : [إن إنساناً يعيش « فاقد الوجه » خير من مئة أسد ميت !!] وهذه فلسفة استرالية من غير شك ! !

ثم إن ثورة القائد الشاب التى كانت متأججة خبت ، وتحول

الى إنسان خاطئ في نظر نفسه ، وأخذ يلح في طلب العفو من أسيره .

ومن ناحية أخرى فان حكومة المارشال في نانكين علمت بحادث الاختطاف المروع ، فقررت أن تسير الجيوش فوراً لسحق « سيان » ومن فيها . وكان كل هم مدام شيانج أن تحول دون إصدار هذه الأوامر ، لأن استعمال القوة سيؤدى حتما إلى قتل زوجها . واقترحت الحكومة أن ترهب المتمردين على الأقل ، فترسل طائراتها لدك المدينة المجاورة لسيان . ذلك لأن الجميع كانوا يرجحون أن المارشال مات ! إما انتحاراً أو برصاص المتمردين . ومثل هذه الحركة الطائرة ، فيها ـ بالقليل ـ تكريم لذكرى المارشال الراحل ! !

ولكن « السيدة » رفضت هذا التكريم . . فما جدوى قتل الآلاف من الصينيين هنا وهناك .

إلا أن المارشال عندما علم برغبة الحكومة تهلل فرحاً ، فقد خلف وراءه أعواناً صادقين . . وأحب جداً أن تتم خطة الحكومة إلا أن دونالد في سيان ، و « السيدة » في نانكين كانا على اتصال بالتليفون أو بالبرق ، وكانا متفقين على وجهة النظر وعلى الخطة التي يجب أن تتبع ..وكانت خطة جريئة خطيرة

ظهرت طائرة فى سماء سيان ، وكان سادة المدينة العسكريين يعلمون أنهـا تقل مدام شيانج كاى ـ شيك ، وقد احتشدوا فى المطار للقائها ، وهبطت الطائرة ، وظهرت « السيدة » التى جاءت مختارة الى عرين الأسد ، ووضعت نفسها بين فكيه .

تقدم نحوها شانج القائد الشاب يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فهشت فى وجهه ، وسلمت عليه بحرارة كأن لم تكن بينهما أشياء وأقبل « يانج » القائد الثانى فى المؤامرة ، فصافحته أيضا مبتسمة طلقة المحيا .

وكان دونالد قد قابلها فى الطائرة قبل نزولها منهـا ، فأعطته مسدسا . وقالت له فى حزم :

ـ إذا أخفقت خطتى فأطلق الرصاص على رأسى بدون أى تردد .

ولما نجح اللقاء على هذه الصورة ، ولم تظهر بوادر الشر، تنهد دونالد ، فقد كان يرزح تحت هم ثقيل ، ولم يعد يحس بالمسدس فى جيبه ، وكان قبل دقيقة يحس به كأنه قنطار من حديد .

وقالت السيدة للقائد الشاب :

ـ أرجو أن تأمر بعدم تفتيش حقائبى . فانى لا أحب أن يمس أحد متاعى. فأجاب :

ـــ عفوا سيدتي . ما كنت الذى يجرأ على إصدار مثل هذا الأمر بالتفتيش .

واقترحت السيدة قبل أن تذهب لرؤية زوجها ، أن تشرب كوبا من الشاى مع القائدين . فرحبا بها .. وفى أثناء الشاى بدأ الحديث ، وعرفت مدام شيانج الفطنة اللبقة كيف تحول هذين الرجلين ، إلى بشر مهذبين يراعون أدق الواجبات ،ويتوقون إلى أن يظهروا أمامها بمظهر « الجنتلمان » الصحيح .

وتم الاتفاق بينها و بين القائد الشاب على كل شىء ، دون أن توقع ورقه ، أو تعطى حتى مجرد وعد بشىء ..

أما كيف التقت السيدة العظيمة بزوجها فى سجنه فقد وصفه هو فى مذكراته بقوله :

« دهلت لمرآها ، حتى لكأنى كنت فى حلم . وكنت علمت من أخيها فى اليوم السابق [كان قد حضر إلى سيان] أنها قد تأتى ، فاعترضت على مجيئها إلى هذا المكان . وما أن رأيتها تسخر بالخطر ، وتهزم الخوف ، وتقتحم عرين الأسد حتى هزنى مرآها من الأعماق هزا عنيفا وحتى أحسست برغبة ملحة فى البكاء ..

« وقد جاهدت زوجتى أن تبدو مرحة .

« وكنت شديد القلق على سلامتها . ومنذ عشرة أيام قضيت على كل خاطر يساورنى فى أن أحتفظ بسلامتى .. أما الآن ، فقد تبدل الأمر تماما لا بالنسبة لى ، ولكن بالنسبة لها .

« انها جسورة ، حكيمة ، رحيمة .

وعندما ظن الجميع أن السماء صفت ، تلبدت فجأة بغيم كثيف
فقد كان الاتفاق مع القائد الشاب ، ولكن الجنرال يوان
ـ التالى له ـ لم يقر الأمر ، فقد خشى أن يحتمل عنقه نتيجة هذه
المؤامرة ، وأن يدفع هو الثمن ، بينما ينجو الشريك الأول .

وبعد أن أعدت الطائرة ، وأديرت مراوحها ، رفض يوانج
أن يطلق سراح المارشال ..

وتعقد الأمر تعقدا عجيبا . ولما بدا ألا حل لهذا الاشكال ،
خطرت لدونالد فكرة ، وهى أن تستقبل « السيدة » ، وزوجها ،
زعيما شيوعيا . وهما لم يقابلا شيوعيا من عشرة أعوام . وستؤدى هذه
الخطة إلى أن يستوثق الجميع أن سياسة الوفاق جد لا هزل فيه ،
وأن الجبهة الوطنية حق لا يداخله زيف . فالمارشال سيضع يده
فى يد واحد من أبغض الناس إليه .. وهنا لن يجد إنسان سبيلا
إلى معارضة المارشال ..

ووافقت « السيدة » على مضض . ونجحت الخطة ، وفتح
السجن أبوابه ، وخرج الزعيم مع زوجه إلى الطائرة فورا ، ومعهما
دونالد .

وكان المارشال قبلها قد استقبل القائد الشاب ، وألقى عليه
محاضرة أخرى وأخيرة . فلما هم بالرحيل عرض « شانج » أن

يعود إلى نانكين فى ركاب زعيمه — الذى كاد يخونه — فأبى . شيانج كاى ـ شيك عليه ذلك . ولكنه أصرعلى أن ينفذ خطته ، وانسل إلى الطائرة وركب بجوار السائق .

واستمر سجن القائد العام ثلاثة عشر يوما ، من اختطافه إلى إطلاق سراحه .

وهناك فى نانكين ألح « شانج » فى أن يقدم للمحاكمة . وقال شيانج انه سيعفو عنه . واكتفى بنقله من قيادته إلى مكان بعيد .

أما يوانج ، فقد منح ٦٠ الف جنيه ، وأجازة يطوف فيها حول العالم ..

●●●

وهكذا انتهت هذه المحنة العجيبة التى حلت بالزعيم الوطنى ، وكادت توقع الصين كلها فى خطر محقق .

ولكنها من الناحية الأخرى أفادت الصين فائدة كبرى . فقد « تأمل » شيانج كاى ـ شيك فى كل ما حدث ، ورأى أن هناك « شيئا » ما قد حدث فى الصين ، هو الذى دعا إلى أن تأبى جيوشه قتال الجيش الشيوعى فى « سيان » ، ولم يكن الخطأ كله خطأ القواد . ذلك لأن الجنود أنفسهم تقابلوا ..

هذا « الشيء » هو أن الصين في أعماقها ملت قتال الصين . ولا سيما أن العدو قد اخترق باب الوطن ، وسار خطوات في أحشائه ...

هذا « الشيء » هو أن الجهود الكبرى التي كان يبذلها المارشال لتوحيد الصين بقهر الخارجين على الوحدة من الشيوعيين، قد تتأتى بوسيلة أخرى ، وهي توجيه الجميع للعدو الذي يتفق الكل على قتاله ، ولا يختلفون ...

وإذن فلتعلن الحرب على اليابان

وحسبت اليابان أن تحرك شيانج كاي - شيك ضدها ليس إلا حادثا من الحوادث سرعان ما ينتهي . وأخذت تطلق كلمة « الحادث » على حربها في الصين حتى بدأت غزوها الكبير لآسيا من ثلاثة أعوام . ذلك لأنها رأت أن الأمر خطير جدا .

وإذن فقد استفاد الوطن الصيني من درس « سيان » الذي ساقه القدر بدون اعداد كبير ، أو ترتيب سبق حدوثه .

واستفاد الشيوعيون أيضا . فقد كان في وسعهم أن يظفروا برأس المارشال في « سيان » . ولكنهم تصرفوا تصرفا أحسن ، فقد كفوا عنهم — ولو إلى حين — عداوة الكومنتانج كله . وأخذوا جميعا يتكاتفون ، ويتزاملون في كفاحهم ضد الغزاة .



المناطق المظللة هى التى استولت عليها اليابان فى الصين وجنوب غربى آسيا
حتى شهر اكتوبر سنة ١٩٤٤

وجها لوجه

أنشد شاعر صيني :

- تهب ريح الغرب الباردة ، فتتلاعب بمعطفي القديم الذي خضت به المعركة .
- ويمتلىء فؤادي أسى وحسرة ، عندما أرى على معطفي بقع الدم الأحمر .
- لم أعد أملك الآن في هذه الدنيا غير اثنين : قلب مخلص وروح شجاع .
- وسيظل قلبي وروحي معي إلى الأبد ، على الرغم من الثلج والبرد اللذين يحيطان الآن بي .

— ١ —

سير الزمن

قليل ما يمكن أن نقوله عن حرب شيانج كاى ـ شيك ضد اليابان فى سبع سنين ، وعما قريب تستقبل الحرب عامها الثامن ..

وليس ما نقوله قليلا ، إلا لأن المعركة لم تنته بعد . ولا تزال الصين تحمل سلاحها ، وتتابع كفاحها ، ضد جيوش وفيرة العدد والعدة . ويحتمل الفريقان خسائر جسيمة . ولكن خطة الدفاع الأولى التى يتبعها القائد الأعلى ، هى أن يكسب الوقت ، ويستخدمه كأقوى سلاح فى يده .

وقد نجحت هذه الخطة نجاحا غريباً . . . ويترتب عليها — إن لم تحصل مفاجآت ليست فى الحساب — أن تسترد الصين حريتها ، وأن يظفر زعيمها بوحدة بلاده ؛ وبأن يجلسها فى مكان كريم بين مجموعة الدول الكبرى . .

حقيقة استولت اليابان على شواطىء الصين كلها ؛ وحصرتها بحراً .

وحقيقة خسرت الصين جميع موانيها التى كانت تدر على ميزانيتها قسماً كبيراً من إيراداتها .

وحقيقة بلغ مجموع سكان الأراضى التى استولت عليها اليابان ٢٠٠ مليون نسمة . . كل هذا صحيح ، ولـكن . .

لـكى تستبقى اليابان سلطانها على هذه الأرض وهؤلاء السكان فلابد لها من أن تحتفظ بجيش يبلغ — قبل شن الهجوم الأخير — ٨٠٠ ألف جندى . وهذا غير جيش الاحتلال فى منشوريا .

ولـكى تتابع اليابان حربها الهجومية ، فهى تخسر شأن كل مهاجم . . وخسارة الدافع عادة تـكون أقل إذا كان خط انسحابه مفتوحا وراءه . ووراء المارشال شيانج كاى ـ شيك ثلثى الأرض الصينية .

ولـكى تظل اليابان محتفظة بمركزها الحاضر ، فانها تنفق على الحرب ، وعلى مناطق الاحتلال نفقات مستمرة . وليست اليابان من الأمم الغنية ، فضائقتها الاقتصادية هى التى دفعتها للحرب ، لا تخمتها بالثروة . وكلما طال الزمن ازدادت النفقة ، واشتد الضغط الاقتصادى فى داخل اليابان .

ولقد فقدت اليابان أعصابها فعلا من طول الزمن . إذ أنها قدرت عندما شرعت فى الرد على تحدى شيانج لها أنها ستقضى على جيشه فى ثلاثة شهور . فلما أصبحت الشهور ، أعواماً أخذت

تجاهد لسد جميع المنافذ التى تصل منها المعونة أو التجارة للصين .
فتحرشت بفرنسا لأن لها مستعمرة (الهند الصينية) ، فى الجنوب .
وضاقت بانجلترا لأنها فتحت طريق بورما الذى يبلغ طوله ٢ر١٠٠ ميلا . وأسأمها الدولار الأمريكى الذى بدأ يتسرب لحكومة الصين بعد أن استحوذت الجيوش اليابانية على كثير من مصادر الثروة والمدن الكبيرة ...

ولم تجد اليابان مناصا من أن تعلن حربا جديدة .

فأما فرنسا فقد خرت صريعة فى عام ١٩٤٠ وأمكنها بسهولة أن تضع يدها على مستعمراتها الجنوبية .

وأما إنجلترا وأمريكا فقد أعلنت عليهما الحرب . .

وهكذا حقق شيانج كل الغايات التى يرجوها ، فأصبح يعاونه فى حرب اليابان أكبر أساطيل العالم ، وأعظم مصانع الأسلحة فى الدنيا .

ولقد حاولت حكومة طوكيو بكل وسيلة أن تقنع المارشال بأن يكف عن حربه لها فلم تفلح .

عمد رئيس وزارتها السابق الأميرال توجو الذى أعلن الحرب على الدول الديمقراطية إلى الراديو ؛ وأخذ يخاطب عن طريقه زعيم الصين قائلا له : ضع المعاهدة التى تعجبك ، وأمل شروطك كما

تريد ، وستقبلها اليابان . فلم يرد عليه المارشال الصيني بكلمة واحدة . . .

وهكذا كادت اليابان تجثو على قدميها أمام الصين التي لم تنتصر بعد في معركة واحدة ، ولكن بدون جدوى . ذلك لأن اليابان حسبت الحرب حساباً حسنا ، فوجدت أنها ستبقى في الصين مليونا ونصف مليون من الجنود، ثم هي تريد بعد هذا مواجهة الأمريكان والإنجليز .. فكيف يتأتى هذا . لابد من مصالحة هذا الزعيم العنيد بأي ثمن .

وحسب الزعيم العنيد حسابه ، فوجد أنه استطاع أن يصبر على الحرب مع اليابان منفردا خمس سنين ، فكيف يتخلى عن كفاحه وقد ضمن مؤازرة عسكرية فعالة من الخارج . .

وهكذا صدق المثل الصيني الذي يقول أنك إذا ركبت على ظهر النمر فكيف تستطيع النزول على الأرض .

فقد تفاجيء النمر فتثب فوقه ، وقد تبقى في هذا الوضع الخطر فترة من الزمن ، ولكن ما ان تهبط أرضا حتى تتلقفك أنياب هذا النمر ، وقد ملأته جرأتك غضبا . . .

وكل ما تعتمد عليه الصين الآن في حربها ضد اليابان ، هو الإبقاء على جبهة قتال في الأرض الصينية ، لأن هذه الجبهة تمتد مسافة كبيرة جدا كانت تبلغ ٢٫٣٥٠ ميلا قبل عزل الصين الأخير

كما أن هذه الجبهة تعمقت الآن فى داخل الأرض الصينية . وتموين هذا الخط الطويل يحتاج إلى جهود هائلة ، لأن أسوأ ما الصين فى مواصلاتها . فلكى تنقل جيوشك فى أرض مساحتها نحو مليون ميل مربع ، لابد من إنشاء طرق ومطارات وكبارى وبعض خطوط حديدية ، وكل هذا تضطلع به القيادة اليابانية ، أو تحملها القيادة الصينية على ان تقوم به ، وأن تحافظ عليه محافظة تامة .

ذلك لأن المارشال شيانج نظم حرب العصابات تنظيما دقيقا وراء الخطوط اليابانية . فكل ما يبنونه يهدم ، وفى هـذا تجد اليابان أعظم المشقة . .

ويقود المارشال شيانج كاى ـ شيك جيشا يبلغ مليون ونصف مليون جندى . وثلث هذا العدد مدرب تدريبا تاماً على حرب الخطوط الأمامية . وعند ما يجد القائد العام السلاح الذى يلزمه فسيتمكن من توجيه هذا الجيش كله للهجوم بدلا من الدفاع .

وعلى ذكر الجيش الصينى ، نقول إن قواده يجدون مشقة كبيرة فى تكوين جيش موحد من المجندين القادمين من أنحاء متباعدة تختلف لهجتها [رغم أن اللغة واحدة كما ذكرنا] ، وتختلف عاداتها ويختلف طعامها .

وهذه المشقة تحمل فى طواياها نعمة فهى حقيقة مرهقة من

وجهة النظر العسكرية . ولكن بعد أن يتم مزج هـذه الوحدات وتعويدها على نطق واحد وحياة مرتبة ، ستكون فى المستقبل نواة الصين الجديدة التى كافح صن يات — سن وحواريه شيانج كاى — شيك فى سبيل إيجادها .

ولقد سار حزب الكومنتانج وحكومته خطوات حسنة فى سبيل نشر التعليم وتوحيد الصين عن طريق المدرسة والجامعة . واليابان تعلم هذا جيدا ، وتخشاه جدا ولهذا لحق ما يقال من أن كل مدينة يظفر بها الجيش اليابانى يبدأ بالمكاتب العامة والجامعات فيحرق كتبها حرقاً ، لأنه يخشى من هذه الكتب أكثر مما يخشى الأسلحة الصينية .. ففيها الصين المقبلة . وأما الجيش والحرب فهى صين اليوم .

بل لقد ذهبت اليابان إلى ماهو أبعد من هذا ، فهى تعرف أين توجد المدارس والجامعات فى أنحاء الصين المترامية . وترسل طائراتها ، لا لتضرب كبريا ، أو خطا حديديا ، أو ثكنة ، ولكن لتدك هذه المعاهد العلمية . فهى عندها أخطر هدف عسكرى يجب تدميره قبل غيره .

وهذه الطائرات التى توغلت فى الصين إلى مسافات بعيدة ، قالت لسكان المناطق النائية — وربما للمرة الأولى — أن فى البحر

الشرق جزيرة اسمها اليابان ، أرسلت عساكرها لاحتلال أرض الوطن . فيسعى أهل هذه المناطق حفاة إلى زعيمهم لكى يحاربوا معه و يموتوا فداء وطنهم .

و إذا كان شيانج كاى ـ شيك قد أفلح فى شىء ، فقد عرف كيف يستغل غلطة اليابان بمحاولتها احتلال الصين العسكرى [كانت تستطيع بلوغ أهدافها الاقتصادية بطريق آخر] ، و ينفخ فى بوق يدوى صوته فى أنحاء هذه القارة العظيمة لكى يوقظها على معنى يطرق الآذان للمرة الأولى : وهو أن الصين ـ أم الجميع ـ فى خطر ، فتكاتفوا لإنقاذها . .

وللمرة الأولى و بفضل اليابان أيضا ـ ظهر فى الصين زعيم ، حاكم ، لا يعتمد على صفته الدينية مثلما كان الأباطرة السابقون ، و إنما يعتمد على إخلاصه لبلاده وكفاءته الذاتية لكى يجمع حوله حب وطاعة الملايين العديدة من البشر . . وهو بعد هذا على دين ليس هو دين هذه الأمة الكبيرة أغلبيتها وأقليتها ! !

وفى هذه النقطة يختلف شيانج كاى ـ شيك كحاكم للصين عن الميكادو ، وغاندى . فأولهما ملك ، وثانيهما زعيم . . . وطاعة قومهما لهما مشوبة بنوع من التصوف الدينى .

المارشال يختار أنواعاً من السلاح الخفيف للجيش

— ٢ —

الحرب والسلم

الجراحات الدامية التى تدمى فى جسم الصين .. هذه الأرض الطيبة الوادعة ، ستلتئم بعد حين . ولا يحتاج شيانج كاى ـ شيك إلى أكثر من أن يفتح طريق إمداده من حلفائه الديمقراطيين ، ولديهم الكثير مما يحتاج إليه .

وأما قبل هذا .. قبل فتح الطريق ، فلن تستطيع اليابان أن تدفع الحكومة الصينية إلى التبت مثـــلا فى الركن الجنوبى الغربى . كما أن الصين وحدها ، وفى ظروفها الحاضرة لن تستطيع أن تلقى باليابانيين فى البحر ..

والمدد المنتظر ليس طريقه من بورما التى سمع الناس كثيرا عنها . ففى بورما حقيقة طريق ذكرنا طولها . ولكنها لا تكفى للنقل الحربى بالكميات التى تحتاجها الصين ، كما أنه معرض للسيول

الاستوائية فى الصيف . وكثيرا ما تكتسح هذه السيول الكبارى والمواصلات الصناعية فى الطريق .

ولكن البحر هو الطريق الأهم ، الذى يحمل أكداس الأسلحة والأغذية والمهمات ، بملايين الأطنان إن أراد الحلفاء . اما وقد فتحت الولايات جبهتها الجديدة فى الفليبين ، وقررت الاستيلاء عليها فيجب أن تكون وثبتها التالية على فرموزا ، ثم على شاطىء الصين الشرقى حيث تتصل جيوشها بجيوش المارشال شيانج كاى ـ شيك .

وقد ذكرنا أن اليابان حاولت من عامين أن تعرض صلحا عن طريق الأثير على زعيم الصين . وليست هذه هى المرة الأولى التى تمت فيها هذه المحاولة .

فقد استولت الجيوش اليابانية على عاصمة الصين بكين، وكانت تظن أن الصين ستلقى السلاح ، ولكن المارشال انسحب إلى مدينة جديدة اتخذها عاصمة ، ثم ثالثة وهكذا .

وفى سنة ١٩٣٧ ـ عند سقوط بكين ـ حاول سفير المانيا أن يعرض الصلح على المارشال باسم اليابان . فزاره ، واستقبلته ـ كالمعتاد ـ مدام شيانج ، وقدم لها وثيقة الصلح ، فألقت عليها نظرة ثم قالت للسفير :

— إنى أسر إذا رأيتك مرة أخرى .. هل تتكرم وتخبرنى عن حال أطفالك الأعزاء .

« فتكرم » وحدثها عن الأطفال ، ولم يدر أى حديث عن الصلح . وغضبت اليابان غضبا اسود من هذا الرفض لشروطها ، وقررت أن تسحب اعترافها بحكومة الكومنتانج . وأعلنت أنها عما قليل ستقبض على شيانج كاى ـ شيك ، وتقطع رأسه كثائر متمرد !!

وفى ديسمبر سـنة ١٩٣٨ أعلنت طوكيو شروط صلح جديدة هى :

١ — اعتراف الصين بحكومة منشوكو التابعة لليابان ، وانضمامها لميثاق مناهضة الشيوعية .

٢ — تصبح منجوليا الداخلية منطقة « لاشيوعية » خاصة .

٣ — احتلال مناطق مختلفة من الصين بالعساكر اليابانية .

٤ — فتح الصين ـ ومنجوليا الداخليـة ـ ومقاطعات الشمال الخمس للنفوذ الاقتصادى اليابانى .

٥ — حل حزب الكومنتانج ..

ولم تجب الصين طبعا على هذه الشروط المهينة .

وفى أوائل سـنة ١٩٣٩ أعلنت مدام شيانج كاى ـ شيك

الحد الأدنى لشروط الصلح . وكانت الصين وقتهـا قد يئست من معاونة الدول وعصبة الأمم لها . وكانت هـذه الشروط : سلم مع الشرف يعترف بسيادة الصين على أرضها ، واستقلالها الإدارى وأن تعامل الصين دوليا على قدم المساواة مع غيرها .

وفى سنة ١٩٤٤ ، بعد أن تطورت الظروف الدولية هذا التطور المدهش لمصلحة الصين ، لم ترض الصين بغير الاستقلال الكامل مع كل وسائل تأمين المستقبل ، وقد يكون من وسائل التأمين الاشتراك فى احتلال اليابان !!

وإذا كانت الصين قبل اليوم تتخبط فى ظلام الوحدة ، فقد استبان الآن طريق النصر أمامها ، وعرفت من أين وكيف تظفر باستقلالها التام الذى تريده ..

وإذا كان شيانج كاى ـ شيك قد كابد خلال السنين الماضيات كل هذه المشقة لكى يشق أمام وطنه طريقا غير طريق العبودية فإن أمامه طريقا أطول ، وجهادا أعنف لكى يكسب السلم .

— ٣ —

معركة السلم

كانت الصين مطمورة طوال ٤٠٠٠ سنة تحت طبقات من التراب أهالها عليها الزمن ، وفساد الحكم ، ورداءة المواصلات ، وإهمال المرافق العامة ، وسوء الظروف الاقتصادية .

وهب الدكتور « صن » يزيح عن بلاده أكداسا بعد أكداس من هذا التراب . ثم كانت الحروب التي كادت تزعزع الثقة بمستقبل هذه البلاد . ولكن هذه الحروب ، كانت أيضا من العوامل الهامة في يقظة هذا الجسم الهائل المترامي الأطراف الذي كان مستلقيا على الأرض يغط ، ولغطيطه صوت منكر غليظ .. فقد تحرك .. ثم استيقظ .. ثم تثاءب وتمطى .. ثم وقف على رجليه .. ثم أخذ يفرك عينيه بيديه ، ويجرب كيف يحرك أطرافه .. وبقي عليه أن يستخدم جسمه كله فيما خلق الله من أجله الأجسام : حركة ونشاطا وانتاجا .

ولحكومة المارشال شـيانج كاى ـ شيك ، ولحزبه ـ الكومنتانج ـ برنامج انشائى من الطراز الأول يحاول الجميع تنفيذه مسترشدين بثقاة من رجال الغرب ، ومعتمدين على شباب الصين الذين تلقوا تعليمهم فى أعظم جامعات العالم ..

وقبل كل شيء ، تهتم الحكومة الصينية ـ ومن حقها أن تفعل ـ بانماء الشعور الوطنى بين السكان ، وتذكيته ، لا بضغط الحرب . ولكن بالعوامل التى تجعله طبيعة أصيلة فى نفس كل صينى .. حقيقة كان غزو اليابان سببا هاما فى أن عرف الصينيون بوضوح كل ما تدل عليه كلمة «وطن» . ولكن سيأتى يوم تنتهى فيه غارة اليابان على جارتها ، وتبقى الصين لمصيرها .. وفى انتظار هذا اليوم يعمل المارشال وأعوانه على تنظيم أمته تنظيما داخليا دقيقاً .

وقد بدأ .. بدأ بالمجالس البلدية والمحلية .. مجالس الأقاليم التى تهتم بالمرافق المحلية ، وتعلم الناس كيف يتعلمون أن لهم حقا فى حكم أنفسهم ، وحقا فى الاشراف على أداة الحكومة ..

أدخل حديثا نظام الإدارات الإقليمية المستقلة استقلالا جزئيا [وهو أضيق نطاقا من نظام الولايات المتحدة] .. كان ذلك فى عام ١٩٤٤ . وقد دلت احصاءات وزارة الداخلية الصينية الأخيرة ، على أن هذا النظام طبق فى ٣٤٢٫٣٠١ بلدة ـ وهى أصغر وحدة

إدارية فى الصين . وهذا الرقم يبدو كبيرا .. ولكن لا تنس أن مساحة الصين أكبر من مساحة أوربا !!

ولا جدال فى أن المثابرة على نشر هذا النظام ، وإشعار الأهالى إشعارا جديا بأن أمرهم موكول إليهم سيبدل من العقلية الصينية القديمة التى كانت تعتمد اعتمادا كليا على حكومة مركزية تترك لها التصرف فى كل مقدراتها دون تذمر ، أو استقراء لرغبات الشعب وحاجاته . . .

وهذه هى الخطوة الأولى نحو الديمقراطية .

والواجب الثانى الذى تضطلع به الحكومة الصينية هو التعليم

ونقل هذه الملايين الهائلة من حالة الجهالة المظلمة إلى نور العلم ليس بالأمر الهين . إن بلادا يقل عدد المتعلمين فيها عن ١٠٪ ، تحتاج إلى اعتمادات ضخمة لكى توجد أداة التعليم من مدرس وكتاب ومدرسة .

ولقد تعاونت وزارة المعارف مع المجالس الاقليمية تعاونا وثيقا لنشر التعليم فى الصين ، فأنشأت برنامج السنوات الخمس عام ١٩٤١ ، لكى تنشر بموجبه التعليم فى ١٨ مقاطعة من مقاطعات الصين .

وتشرف هذه الوزارة ، منذ أنشىء الحكم الوطنى الجديد على

ربع مليون مدرسة ، معظمها من المدارس الشعبية وعدد التلاميذ في هذه المدارس ٣٦ مليونا من التلاميذ .

ويقضى نظام السنوات الخمس بانشاء مدرسة في كل بلدة بالصين ، أي أنه بعد عامين سيتم اتمام هذا البرنامج ، إذ تدل الاحصاءات الأخيرة على أن العمل يسير في سبيل الانجاز كما قدر له مع اختلاف يسير .

والصين بلاد ضخمة كما قلنا . وبعد أن يتم هـذا البرنامج ، سيتبقى في الصين ١٥٤ر٦٨٣ر٤٦٠ أميا ، لابد من تعليمهم حتى يقال ان الأمية محيت من الصين ، وهذا الرقم يمثل ٠.٣٤ ٪ من عدد السكان .

ولكن إذا وصلت الحكومة في آن قريب إلى أن ترتفع بنسبة عدد المتعلمين إلى ٠.٦٦ ٪ فهذا نصر كبير للارادة القوية ، والعزم الأكيد على السير في طريق الحضارة والتقدم .

وبهذه المناسبة نذكر أن مشروع مكافحة الأمية في مصر ، الذى قدر له أن يتم في ٤ سنوات سيعلم ٠.٢٠ ٪ من عدد السكان فقط وبهذا تكون الصين قد سبقت مصر ، على الرغم من وجود كل أسباب التيسير في مصر ، ووجود كل أسباب التثبيط والتعسير في الصين . إلا أن مكافحة الأمية هناك ، تتم وسط موجة كبرى من

الحماسة الشعبية العظيمة ، وقد جعلت فريضة وطنية مقدسة على كل قادر . أما عندنا فى مصر ، فالأمر يسير فى «روتين» حكومى عادى ، لم يجند له الاحساس القومى العام بعد .



يخلق انتشار التعليم ناشئة صينية جديدة
تهيم بالحرية وتهتف بها

وسيساعد نشر التعليم فى الصين ، بهذه الهمة التى تبذل الآن، على أن تباشر الحكومة الصينية حياتها الدستورية ، وتحافظ عليها من كل عبث .

وعندما يطبق الدستور تطبيقا تاما ، فسيكون نواب الأمة فى مجلسها التشريعى ١٢٠٠ نائبا

وقبل الحرب جرت انتخابات ، فكان عدد النواب ٩٥٠ نائبا

وتواجه وزارة الداخلية الصينية مشكلة معقدة الآن ، وهى إحصاء عدد سكان الصين !! ذلك لأن كل نائب يمثل عددا معينا من السكان .

ومن المقرر الآن ، أن يجتمع أول مجلس كامل للنواب الصينيين بعد عام واحد من انتهاء الحرب .

● ● ●

والتعليم ، وتنمية الشعور القومى ، سيجعلان من الصين أمة متحدة متماسكة من الدرجة الأولى ، لأنها ستعرف ـ وللمرة الأولى ـ كيف تحكم نفسها حكما يؤيده ويسنده كافة أفراد الشعب الصينى .

ولكننا نلمح بين حين وحين صحافة اميركا ، تحاول أن تلقى

بعض الغموض على مستقبل الصين ، وتستمد هذا الغموض من حاضرها .

وأمامى الآن بحث لحصته مجـــلة المختار لأحد الصحفيين الاميركيين الثقاة فى المسائل الصينية قال فيــه : « لعل مستقبل المحيط الهادى ، ومنطقته ، أهم للولايات المتحدة مباشرة مما عسى أن يحدث بعد الحرب فى بولنـــدا أو يوغوسلافيا ، أو فرنسا ، أو اليونان .

« وسيدبر الأوربيون أمورهم بمعونة أو بغـير معونة منا بعد الحرب . وقد أوضح ذلك فى الشهور الأخـيرة ، الروسيون ، والفرنسيون ، والبريطانيون ، والهولنـديون ، والبلجيكيون وغيرهم . وأكبر حلفائنا ـ وهم البريطانيون والروس ـ معنيون بمستقبل اوروبا أكثر من الأميركيين ، ومن أجل هذا ارتبطوا فى اوروبا بما لانزال نتردد فيه . »

ومعنى هذا الكلام أن اوروبا وشؤونها تهم الدول الأوربية ، ولا تستطيع اميركا أن توليها من العناية ما تستحق . أما آسيا فالأمر فيها يختلف ، ويجب أن يكون لأميركا الكلمة الأولى فى شؤونها .

ويؤيد هذا المعنى ما استمر فيه الكاتب . إذ قال :

« ولكن الأمر على خلاف ذلك فى المحيط الهادى ، فقد أخذت اميركا فيه على عاتقها عهودا جسيمة ، دائمة . وقد تقبلت المسؤولية عن إقامة نظام بعد الحرب فى آسيا بعد نزول اليابان كدولة عسكرية . »

وإذن فلن تكون الصلات بين اميركا ، وبين الصين صلات عادية ، لأن لأميركا تبعات جسيمة ودائمة نصت عليها المعاهدات ، وقضت بها هذه الحرب التى تدور الآن ، والتى سيترتب عليها تحرير الصين ، وإعادة الأجزاء التى انتزعت منها إلى الحكومة الوطنية ..

ولكن هل يمكن أن تكون هذه التبعات من النوع الذى كان موجودا قبل الحرب فى صورة امتيازات ، ومناطق نفوذ ، وتدخل فى أدق خصائص السيادة للحكومة الصينية على أرضها ..

لانظن أن ذلك كذلك، لأن الصين أحسنت استغلال الظروف الحاضرة ، وعرفت كيف تتخلص من معاهدات الامتيازات الاجنبية ، معتمدة على حاجة حلفائها لها فى صراعهم الحاضر .

ففى أوائل سنه ١٩٤٣ عقدت الحكومة الصينية اتفاقيات مع

حكومتى لندن ووشنطن تنازلت بمقتضاها الحكومتان الأخيرتان عن امتيازاتها فى الصين .

اذن فلن تعود هذه الامتيازات ، التى كانت لعنة على كل أمة رضيت بها ورضخت لعبوذيتها ..

واذن فماذا يقصد الكتاب الاميركيون بالإشارة إلى التبعات ، وضرورة التنبه للمستقبل ؟.. لا يتردد الكاتب الذى نشير إليه فى التصريح بأن الصين لا تصلح لأن تكون دولة من الدرجة الأولى فهو يقول :

« إن من الخطأ الشديد ستر الحقائق الحالية عن الصين ، لأن ذلك يوهم الأميركيين أن كل ما علينا فى الشرق الأقصى هو أن نهزم اليابان ، فيسعنا حينئذ أن ننفض يدنا من الأمر كله ، وندعه لأصدقائنا الصينيين . وهذا خطأ ، لأنه لا يساعدنا على أن ندرك الكنه الصحيح لتعهداتنا التى ارتبطنا بها فى آسيا . ومؤدى ذلك أن نعجز عن النهوض بهذه التبعات »

واذن فهناك دعوة إلى عدم ترك الصين لشأنها بعد الحرب . وتستند هذه الدعوة إلى تصريح مبهم منسوب للرئيس روزفلت يقول فيه إنه « دائما يذهب إلى (١) وجوب معاملة الصين كدولة

من الطبقة الأولى لمنع الحرب فى منطقة المحيط الهادى من التطور إلى حرب بين البيض والشعوب الملونة (٢) ويقرر أن الصين ستكون فى مدى جيل أو جيلين دولة من الطبقة الأولى »

ويعلق الكاتب على هذا التصريح بقوله :

« لا ينبغى أن يعمينا العطف على الصينيين ـ بالغا ما بلغ ـ عن الحقيقة الواقعة وهى أن الصين ليست دولة كبرى . وأنها لا يمكن أن تصبح كذلك قبل جيل أو جيلين على الأقل ! »

ويختم الكاتب بحثه بقوله :

« إن السلم فى المحيط الهادى بعد هزيمة اليابان ستكون سلما قلقة جدا ، ولا سبيل إلى الاحتفاظ بالسلام إلا بأدق فهم وأعظم حلم وصبر من جميع من يعنيهم الأمر . وسيتطلب نصيب امريكا من هذا السلام مستوى عاليا من الاقتدار السياسى واحتفاظا بقوة اميركية عسكرية وبحرية إلى أجل غير مسمى » .

ولو كان هذا رأيا فرديا لما حفلنا به ، ولما كان له كل هذا الاهتمام فى كتابنا . ولكننا رأيناه يتردد أكثر من مرة وبأساليب مختلفة فى الصحافة الاميركية .

ومن حق اميركا الآن التى تعد المعينة الأولى للصين فى كفاحها

من أجل حريتها أن تتكلم كما تشاء . وأن تصف الحكم الصينى كما تريد ، وأن تنزله المنزلة التى تراها تتكافأ مع مستواه الحضارى ..

ولكن من حق الصين أيضا أن تمعن النظر فى هذا الكلام ، وأن تفتش على البواعث التى تحمل كتابا فى اميركا يقودون الرأى العام هناك ، على أن يقولوا ويؤكدوا ، أنه لابد من مضى زمن كبير على الصين حتى تصبح أمة من أمم الدرجة الأولى ..

ومن واجب الصين أن تتبين العلة لمثل هذا الرأى ، وأن تجد حتى تحوله إلى وهم ، تكذبه الحقائق ، وتكذبه ارقام من مثل الأرقام التى ذكرناها ..

وقد تحدثنا عن العلم ، وعن تنظيم أداة الحكم .. ولكن هذا لا يكفى . ولكن محور الجهاد لكل أمة ، والعنصر الذى لا تستغنى عنه لكى يقال إنها أمة حية ، هو ثروتها القومية .. مقدار إنتاجها .. مدى رفاهية أهلها ..

هذه الملايين التى تتساقط كل عالم كالذباب من الجوع .

هذه الملايين التى آذتها الحروب ، وأنهكتها الفاقة ، وران عليها الجهل ..

هذه الملايين التى أغلق عليها باب الحياة المعتدلة الكريمة .

هذه الحالة المريرة التى جاءت حكومة «الكومنتانج» فوجدت

بلادها عليها، هى التى يجب أن تتبدل، وتتبدل بسرعة تشبه سرعة السحر ..

لابد اذن من أن تزداد ثروة الصين ، وأن تنمى .

والحكومة الصينية تبذل فى هذا الباب مجهودا تحمد عليه . فهى تحاول أن تعيد توزيع السكان على رقعة الأرض التى تحكمها، ولاسيما الذين هاجروا أمام الغزو اليابانى فى منطقة السواحل إلى الداخل .

ووزارة الزراعة والغابات تحدثنا فى هذا حديثا يجب أن نقف عنده . فهى تقول إنه يوجد فى الصين من الأراضى البور القابلة للزراعة ٤٧٫١٦٦٫٠٤٣ « شى مو » [وهو مسطح من الأرض يعادل سدس فدان] . وتوجد بها مساحة مقدارها ١٠٢٫٣٨٤٫٣٣٠ « شى مو » لزراعة الغابات . وقد اجتهدت الوزارة فى نقل السكان إلى هذه المناطق . مقطعة كل أسرة من ثلاثة أو أربعة أشخاص اقطاعيــة من ٦٠ إلى ١٠٠ « شى مو » . وقد تم نقل عدد كبير من الأسر إلى هذه الأرض ومدوا بالمال وأدوات الزراعة التى تمكنهم من استغلال هذه الأرض .

وهذا حسن ، والتفكير فى زرع هذه المساحات الشاسعة من

الأرض المهملة جميل .. ولكن ليس هذا هو كل شيء . بل ليس هذا شيئا يذكر إلى جانب ما يجب أن يعمل لزيادة ثروة الصين .

عبثا يظل زعماء الصين يتحدثون عن بلادهم على أنها بلاد زراعية وكفى ..

عبثا يحسب هؤلاء السادة ، وكل المسؤولين عن مصائر أى أمة فى العالم ، ان الفلاحة تكفى لرقى الشعوب فى العصر الحديث .

عبثا يظن أحد أن أمة من الفلاحين يمكن أن تجد لها مكانا بين مجموعة الشعوب الحديثة الحية فى هذا الكوكب الذى نعيش فيه .

إنما تقوم الحضارة وتزدهر فى عصرنا الحاضر عن طريق الصناعة . . .

الصناعة — ثورة العصر الحديث — هى التى تضمن رفاهية الشعوب وهى التى تستطيع أن توفر القوت للجميع .

وسيقول ناس — وقد قالوه فعلا — إن الكثير من المواد الأولية اللازمة للصناعة ، ومنها الحديد والبترول ، تنقص الصين . ولا مجال لأن تصبح الصين أمة صناعية من غيرها ..

وهذا قول مرذول ، ودعوة متسرع عجول . فنقص أى مادة من المواد الخام أو المواد المحركة، ما كان ، ولن يكون عقبة

في سبيل الصناعة . فانجلترا لا تزرع بزرة واحـدة من القطن . وهى أعظم أمم العالم غزلا ونسجا للقطن ، لأنها تنقله من أطراف الأرض . ولم تجرب الصين أن تختبر كل أنحائها لتعلم على وجه دقيق ما يخبىء جوفها من الـكنوز المعدنيـة .. وعلى فرض أن جوفها خواء من المعادن ، ففي أنهـارها السريعة المتدفقة ، الـكهرباء أعظم القوى المحركة الذى تقوم على تياره أعظم وأضخم الصناعات وبالقرب من الصين جميـع المعادن التى تحتاج إليها ..

واجب الصين الأول اذن هو أن تتحول إلى أمة صناعية ، وأن تبنى مستقبلها على صوت الآلات ، ووراء جدران المصانع .

ولا يحتاج تنظيم الصين ، وتعبئتها للصناعة إلى وقت طويل ولـكن يحتاج إلى عقيدة قوية فى أهمية الصناعة وجدواها .

وما استطاعت اليابان أن تبسط هذا السلطان الهائل على آسيا ثم على اقتصاديات العالم ، إلا لأنها نقلت المواد الخام وصنعت . وقد ذاقت الصين مرارة العوز الصناعى فى كفاحها الطويل المضنى ضد جارتها القوية .. وقوية لأنها صانعة .. لا أكثر .

وليس معنى هذا الذى نقوله أن الصين لا تصنع شيئا الآن .. لا ، ولـكنها كانت قد بدأت نهضتها الصناعية على استحياء وفى بطء شديد ، فلما طاف بها أعصار الحرب دمر الـكثير من هذه

الصناعات بأيدى الصينيين أنفسهم حتى لا تقع غنيمة فى يد العدو.

ولكن الحكومة الصينية حاولت مع هذا أن تنقل معها جانبا من صناعاتها ووفقت فى هذا بعض التوفيق .

ومن طريف ما يذكر، أنه حدث مرة أن صدر الأمر بالإنسحاب من إحدى المدن ، ونقل مصنع كبير مع القوة المنسحبة.

وفى هذا اليوم كان العمال مضربين عن العمل لسبب من الأسباب ، فرفضوا إطاعة هذا الأمر الذى صدر لهم فى الساعة الخامسة بعد الظهر .

ووقع المسؤولون فى حرج شديد : لو أخذوا العمال بالشدة فقد يدمر المصنع ، و إذا انتظروا حتى يتم التفاهم مع العمال فقد تضيع الفرصة و يظفر اليابانيون بالمدينة .. ولكن حدثت المعجزة ، فقد ظهرت فى هذا الجو المكهرب « سيدة » الصين الأولى مدام شيانج كاى ـ شيك ، وتحدثت مع العمال حديثا قصيرا . وما أن أتى الصباح حتى كان المصنع قد نقل .

أجل ــ الصناعة هى حجر الزاوية فى مستقبل الصين . وليس معنى هذا أن تترك الزراعة أو تهمل . لا . ولكن تخضع الزراعة نفسها للصناعة ، بمعنى أن توضع فى أيدى الفلاحين الآلات

الزراعية الحديثة ، ويشرف العلم والعلماء على انتاجهم حتى يصل إلى الذروة جودة وكثرة .

وكما يجب أن تسيطر الصناعة على الحقل ، يجب أن تسيطر كذلك على وسائل الرى ، فلا تترك الأنهـــار العظيمة فى حالتها البدائية التى خلقت عليها من غير خزانات وســدود وقناطر . وبذا تقل الفيضانات التى تهلك الملايين غرقا ، وتقل الانخفاضات التى تهلك الملايين جوعا وعطشا .

أجل — العقل العلمى الهنــدسى هو الذى يجب أن يسود ويتسيطر . ولا نجاة لأمم الشرق من وهدة التخلف إلا فى كنف الصناعة والإنتــاج الكبير الذى يرقى مستوى الحياة ، ويرتفع بالفكر إلى أوج رفيـع ، ويجعل للحياة طعما ومعنى .

●●●

وقصة المواصلات تحتاج إلى عناية ، لا تقل عن العناية بأعظم المرافق الحيوية .. وقد ذكرنا قبلا أن زعيم الصين الأول الدكتور « صن » كان يرى ضرورة التعجيل بإنشاء ١٠٠ الف ميل من الخطوط الحديدية ، ومليون ميل من الطرق الأرضية، حتى تصبح أمة موحدة .

وقد بدأت شركات الطيران الأوربية — وعلى الأخص شركة

اوراسيا الألمانية — نشاطها ، فى إنشاء شبكة خطوط هوائية من أعظم الشبكات المماثلة لها فى العالم . ولكن الحرب الحاضرة ، وشدة ضغط اليابان أوقف نمو هذا التطور الهام .

إلا أنه لا يمكن الاعتماد على الطيران وحده ليكون وسيلة للنقل القومى . فسكة الحديد ، كانت وستظل من أهم وسائل النقل الحديث على الأرض .

وقد ظهر أخيرا كتاب هام عن هذا الموضوع ألفه الوزير الصينى « شانج كاى — نابو » الذى تقاعد منذ عامين فقط .

ففى عام ١٩٣٥ تلقى هذا الوزير دعوة من المارشال شيانج كاى — شيك لكى يتولى إدارة السكك الحديدية فى الصين وفى عام ١٩٣٧ تولى وزارة المواصلات كلها . وقبل تقاعده عام ١٩٤٢ ، كان قد أضاف إلى السكك الحديدية فى بلاده ٢٦٣ر٢ ميلا ، كما مهد ٩٩٤ر١٨ ميلا من الطرق الأرضية .

وقد أورد هذا الوزير السابق تفاصيل طريفة عن تاريخ انشاء السكك الحديدية فى الصين . فقد قال إنه منذ سبعين سنة كان امبراطور الصين يحتفل بذكرى معارضته فى انشاء أول خط حديدى فى بلاده لأن « الأجانب الجهلاء يريدون اشاعة

الفوضى فى الأرض التى يسكنها بنات الآلهة . وخادمات البحر ،
والأرواح العلوية » كما ورد فى المرسوم الامبراطورى

ومع مضى الزمن أمكن التغلب على المعارضات الكثيرة وانشاء أول خط فى البلاد .

وعندما نشبت الحرب اليابانية الصينية ، كانت قيادة الجيش تأمر بمد خطوط حديدية تمس لها خطط الحرب الاستراتيجية . وكانت تحرس هذه الخطوط حراسة قوية ، لأن بعض الأهالى الذين لا يزالون متأثرين بآراء امبراطور الصين من سبعين سنة ، كانوا يحاولون الإغارة على هذه الخطوط وتحطيمها .

وقد استولت اليابان على معظم الشبكة الحديدية الشرقية ولا تملك حكومة المارشال شيانج كاى ـ شيك غير بضع مئات من الطرق الحديدية الآن .

ومؤلف هذا الكتاب يتمثل أمامه المجهود الهائل الذى يحتاجه من الخطوط التى تلزم بلاده ، ويبدى شيئا من التشاؤم فى امكان تحقيقه بالسرعة المطلوبة . ولكنه يقول ان أمام الصناعات الغربية فرصا طيبة لكى تلعب دورها فى مد هذه الخطوط عندما تسنح لها الفرصة .

●●●

— ٤ —

قصة الأفيون

وأظن أن شيئاً ينقص هذا الكتاب ، اذا لم نقل كلمتين عن « قصة » الأفيون فى الصين . التى يقترن اسمها فى ذهن الكافة بدخان متكاثف ينعقد فى سماء الغرف الخلفية ـ وربما الأمامية ـ من حرق هذا المخدر . .

وقد أحاط الحديث عن الأفيون فى الصين الكثير من المبالغة والتهويل . فليس صحيحاً أن كل صينى يفطر إذا كان الصباح برغيف من الخبز ، ورطل من الأفيون . لأن رطل الأفيون يقتل قطيعاً من الفيلة !! وليس صحيحاً أن حكومة الصين تحكم بالإعدام على كل مدخنى الأفيون هناك ، لسبب بسيط ، وهو أننا لم نسمع أن ربع سكان الصين أعدموا فى عام من الأعوام . . .

ويحسن قبل كل شىء أن نذكر حقيقتين : الأولى أن نفختين أو ثلاثة من دخان الأفيون لا تكفى لأن تتداعى تحت وطأتها

أخلاق وروح وجسد المدخن . ففى هذا شيء من المبالغة ، والثانية إن بعض الأطباء ذوى المكانة والعلم – وعلى الأخص من الأمير كيين يؤكدون أن الأفيون لا يزيد فى اضراره بمتعاطيه على بعض أصناف الويسكى القوية . . ويقل تأثيره أحياناً عن بعض الخمر الصرفة أو الممزوجة . . . ممزوجة بخمر آخر .

ويدخن عامة الصينيين الأفيون ، وعلى الأخص – الكولى – أى طبقة العمال الفقراء ، مثلما يتناول بحارة الأسطول البريطانى كوبا ضخماً من البيرة بعد يوم من الجهد الشاق المضنى . كما أن طبقة المترفين من الصينيين تمتص نفساً أو نفسين إذا أقبل الغسق بنفس الطريقة التى يرشف بها أحد المترفين فى نيويورك جرعة أو جرعتين من الكوكتيل قبل الذهاب إلى سهرة شائقة فى الأوبرا .

وقد نشأت عادة تدخين الأفيون فى الصين، للتخفيف والترفيه . . أعنى لإزالة التأثير المضنى الذى يحل بأبدان الصينيين الكادحين فى الحياة الذين يشتغلون عامة يومهم بأشق الأعمال . فالأفيون ينسيهم متاعب يومهم ، أو هكذا يزعمون . . .

كما أن هذه الطبقة الفقيرة ، التى ينهكها العمل فوق طاقتها ، يضنيها أيضاً الجوع ، لتفاهة أجورها ، ولا سبيل لاسكات نداء المعدة أو بالقليل لاخفات صوت هذا النداء إلا بتخديرها . فالأفيون يميت ألم الجوع وألم البدن . :

وقد نقل جون جنتر عن أحد الأجانب المقيمين فى الصين ، الممتازين بالفطنة والذكاء قوله : « الأفيون للصينى يضيف إلى يوم عمله ساعة من أبهج ساعات النهار ! ! » .

ويقول نفس الكاتب : للأفيون دخل فى شؤون السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد الصينى ، أكثر من دخل الخمور فى حياة الأمريكيين مثلا . ولقد عاش معظم الأميركيين فى زمان حرمت فيه الخمر . ولكى تجرب مثل هذه التجربة فى الصين . أى المنع البات لا بد من القضاء على إرهاق البدن ، ومسببات الجوع . . أى لا بد من الارتقاء بالمجتمع وبمستواه المادى ارتقاء كاملا .

وكدت أنسى . .

فالأفيون مصدر هام من مصادر الإيراد الحكومى ، الذى تفرض عليه ضرائب باهظة . ومنذ أعوام [كتب هذا الكلام عام ١٩٣٩ أى قبيل الحرب العالمية الحاضرة مباشرة] كان دخل مقاطعة (هونان Honan) من الأفيون ٢ مليون جنيه فى السنة وان المقاطعة الأخرى التى تشبهها فى النطق العربى ، وإن اختلفت فى النطق الصينى وهى (هونان Hunan) فكان دخلها ٤ مليون جنيه . واما مقاطعة كوانتنج فكان دخلها ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيهاً وهكذا . . .

وقد غطى اليابانيون من دخل الأفيون وحده فى جيهول جميع نفقات حملتهم على هذه المقاطعة ، وخرجوا على عجل بأرباح مركبة.

ويقدر نفس المصدر ، وهو جون جنتر فى كتابه Inside Asia أن حكومة المارشال شيانج كاى ـ شيك تتقاضى ضرائب سنوية على الأفيون تبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١١٠ دولاراً صينياً ـ الدولار الصينى نحو ثلاثة قروش ونصف قرش بالعملة المصرية . [هذا تقدير عام ١٩٣٨] . ولكن الكاتب يشير إلى أن الدخل من الأفيون يدرج فى ميزانيـة سرية ، ولا يضاف مطلقاً إلى أبواب الميزانية الرسمية ، ولا إلى الإحصاءات العامة . وكل دخل الأفيون ينفق على الشؤون العسكرية . وعندما شرع المارشال فى حربه الكبرى ضد أمراء الحرب لتوحيد الصين ، ضرب ضرباته الأولى الحاسمة فى المقاطعات الغنية بإنتاج الأفيون ، ليضمن مالا ثابتاً ينفق منه على برنامجه الكبير . وقد تأكد نجاح حملته عندما عرف أنه وضع يده على هذه المناطق . . لأن الحرب هى المال . . والمال هو وقودها ، ومحركها الأكبر والأهم .

وحكومة الصين الوطنية تدرك تماماً مضار هـذه الآفة على كيانها الوطنى والاجتماعى . ولكن ليس فى استطاعتها أن تقضى عليها بجرة قلم ، أو بأمر تصدره . لأن العادات التى تأصلت منذ

أحقاب طويلة تحتاج في استئصالها إلى جهود متوالية .. والمخدرات في مصر لم تنقطع تماماً ، على الرغم من أن الحملة عليها بلغت أشدها وعلى الرغم من أن المصريين ليسوا من شعوب المخدرات

ومما يؤذى الحكم الوطني في الصين أن كثيراً من الفلاحين يفضلون زرع الأفيون [نبات الخشخاش المعروف] على زرع القمح ، فيموتون جوعاً ، لأنه لا يوجد لديهم ما يقتاتون به .

ولا يمكن الجزم بما اذا كانت تجارة الأفيون في الصين عملا مشروعاً أو غير مشروع ، ولكن يمكن الجزم بأن الحكومة خطت خطوات حاسمة وجريئة في السيطرة على انتاج الأفيون والاتجار به وهي الخطوة الأولى للتخفيف منه ثم منعه . فهكذا يجب أن يكون التدرج في العمل . وعندما كانت آفة الخمر منتشرة قديماً بين العرب ، تدرج القرآن الكريم في تحريمها من الإباحة إلى التقييد ثم الى المنع البات ..

وأهم العقوبات التي تفرض على مخالفات الأفيون عقوبة التهريب . أي الانتاج أو الاتجار دون دفع الضرائب المقررة ، أو بنظام غير الذي قررته اللوائح . والتحايل على عدم أداء الضريبة على كرة صغيرة من الأفيون ، يكفي لأن يزج المخالف في السجن عاما كاملا ..

والعقوبة الثانية هى الإعدام .. لا على المدخن ، أو المتجر ، ولكن على الذين تعالجهم الحكومة من آفة الادمان على نفقتها ، ثم يعودون إلى هذه الآفة . هؤلاء يقضى باعدامهم . فقد أنشأت الحكومة مصحات ، وزودتها بالوسائل و بالفنيين الذين يبرئون البدن من التسمم بالأفيون . ولا قيمة لهذه الجهود العلاجية إذا فتح الباب ولو من ثقب صغير ، للعودة مرة أخرى . ومن هنا كان الإعدام حكمة لا قسوة .

وهذا كله حسن وجميل ، ويسجل بالحمد لحكومة الصين .

ولكن الغزو اليابانى. ككل استعمار يقضى على أعظم الجهود للاصلاح الوطنى . ويجعل من الآفة آفتين . .

ففى المساحات المكتظة بالسكان التى احتلها عسكر اليابان ، نظمت الادارات اليابانية « المختصة » تعاطى المخدرات . وكان من وسائل التنظيم أنها قررت نشر الهيروين — ولا بأس من أن يقال فى الدعاية أنها خفضت من استهلاك الأفيون .

وبعد أن كان ثمن أوقية الهيروين ١٦٠ جنيه فى عهد الحكم الوطنى ، كافحت اليابان هذا الغلاء !! فانخفض السعر إلى الحد الأدنى الذى يمكن تصوره إلى قليل من الجنيهات (٥ جنيهات) . وبعد أن كانت هذه المادة فى متناول المليونيرات — إذا كان فى الصين من

يوصف بهذا الوصف من الوطنيين — أصبح الآن فى متناول الكافة . وقد قدر الدكتور « سيرل بيت » نائب رئيس جامعة نانكين عدد مدمنى هذا السم الأبيض فى المدينة التى يعيش فيها بـ ٥٠،٠٠٠ مدمن أى نحو ثمن عدد سكان المدينة . ومن هؤلاء المدمنين نساء وأطفال .

ولليابان غرضان من نشر الهيروين : فهى تريد القضاء التام على معنوية الشعب الصينى وتحليل كل مقومات فضائله . وفى نفس الوقت تكسب دخلا طيبا من هذه التجارة الرسمية على الرغم من انخفاض الأسعار ، وذلك لكثرة التداول .

وهكذا يمكن أن نقرر ونحن مطمئنون — أن اليابان لا تحب تعاطى الأفيون كثيراً فى الصين لأنه تفضل عليه مخدراً آخر . ولكن هذا الحب المفقود بين اليابان و بين الأفيون لم يمنع انتشاره إلى حد لم يسبق له مثيل فى المدن الكبرى أمثال بكين ، وتيانتسن ونانكين . .

و بين مد الحادثات وجزرها ، تتسلط هذه الآفات على الشعب الصينى وتفسد فى كثير من الأحيان تدابير الحكومة الوطنية للقضاء التدريجى عليها . ولكن سيشرق على الصين فجر جديد عند ما تخضع أرضها كلها للحكم الوطنى الرشيد الذى تمارسه الآن

حكومات الكومنتانج ، لأنها من صميم الشعب ، وتحس بغيرة حقيقية على صالح الشعب .

وقد لخص الصينيون الكبار مكانة وعلما ودراية بشؤون شعبهم .. لخصوا مطالب بلادهم فى ثمانى مسائل :

١ — خلق يتحلى به رجالها .

٢ — صناعات كبرى ، وتجديد وإصلاح فى أساليب الزراعة يزيد الدخل القومى للشعب الصينى .

٣ — أمانة فى القيام على المرافق العامة والخاصة . والقضاء على عادات « البقشيش » الاجبارى . وفقد الوجه ، أو الحاق العار .

٤ — عدد أوفر من الفنيين والمهندسين .

٥ — القضاء على الهزيمة والتردد .

٦ — مدفعية قوية .

٧ — رجال أكثر من أمثال شيانج كاى ـ شيك ، . ت . ف . سونج مدير المالية (أخو مدام شيانج كاى ـ شيك) .

٨ — طرد اليابان من الصين .

● ● ●

و بعد . . .

فإن الأمة التى قدمت للعالم أفخر مايلبس وهو الحرير، وأشهى ما يؤكل وهو الأرز ، وأبدع ما يشرب وهو الشاى ، وأجمل ما يرى وهو الزهور .. إن البلاد التى صنعت الورق والصينى والبارود وسبقت إلى إيجاد الصحافة . . إن الأمة التى تفننت فى النقش والزخرفة وخلقت أصابعها الآيات .. هذه الأمة يجب أن تعود سيرتها الأولى كما كانت خالقة عالمة قارئة مترفة فى زيها ومأكلها ومسكنها ومركبها .

واذن فنحن إذا قلنا إن العبء فوق زعيم الصين وأعوانه الأمناء ثقيل ، فنحن نقول حقا .

و إذا قلنا أيضا أن لدى هذه العصبة الصادقة من أتباع صن يات ـ سن من الإخلاص ما يطمئن أصدقاء الصين على مصير هذه الأمة العريقة الصديقة فنحن نقول حقا . .

فهرس

كتاب الشهر | دار الثقافة العامة
شارع محمد على ١٦٠ بالقاهرة | كتاب الشهر

٣ — العدد الاول | المحرر المسئول: محمد صبيح | مجلة نداء الحرية

١ - ١١ - ١٩٤٤ ت ٥٤٥٩٩ المجموعة الثانية

ما صدر من كتب الشهر

ثمن الكتاب ٥٠ مليما

طبع الغلاف والصور بمطبعة الرغائب بمصر